بسم الله الرحمن الرحيم

من الوسائل البلاغية للإقناع وإنجاح الدعوة

(البرهان التسليمى و التدرج مع العقل الإنسانى فى القرآن الكريم)

أ.د عبد الحليم محمد شادى

أستاذ البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

فرع إيتاى البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

من يدقق النظر فى نظم القرآن الكريم فى دعوته للناس إلى الإيمان يجده يراعى حالاتهم النفسية والاجتماعية حتى تجد دعوته صدى للاستجابة فإذا كذبوا أعاد عليهم الدعوة ، فإذا تمادوا فى التكذيب كرر الدعوة عليهم مرات بالحسنى مدعما دعوته بالأدلة التى يلمسونها وبخاصة ما تتكرر تحت حواسهم كثيراً حتى يعملوا عقولهم فيها ويؤمنوا بل إنه بهذه الأدلة يسدّ عليهم كل طريق حتى يجدوا أنفسهم فى النهاية محاصرين مضطرين إلى الأعتراف بالحق ؛ لأنها أدلة يقر بها كل عقل إنسانى ولا يختلف عليها إثنان ، لأنها أدلة استنتاجية مسلمة المقدمات مسلمة النتائج ولهذا سار على نهجها علماء الكلام والتوحيد وأسسوا مذهبهم المعروف فى البلاغة (المذهب الكلامى) لإثبات أصول الدين وإقحام الخصم حتى يسلم [1] هذا إلى جانب أن القرآن الكريم يتدرج مع عقولهم شيئاً فشيئاً حتى يفاجئهم فى النهاية بالقول الفصل ، وفى هذه الحالة يراعى أنهم وصلوا إلى حالة يؤمل معهم فيها القبول بعد هذا التكرار المتنوع والتدرج اللطيف ، لا حظنا ذلك فى كثير من مواضيع القرآن الكريم فى التشريع والعقيدة والعظات والتكرار والتدرج فيه من أنجح الوسائل فى كثير من القضايا المتنوعة سواء كانت دينية أو دنيوية ، لأن نتيجتها مؤكدة الفائدة وصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ قال : أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم " ولو تابعنا الملاحظة لوجدنا أن منهج التدرج هو الطريق الصحيح للدعوة وقد طبقه الرسول نفسه ومن أمثلة ذلك ما ورد فى حديث إرساله معاذ بن جبل إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام ما رواه ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أنْ يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك

---

(1) ينظر ٤٣٥ المطول الطبعة الأولى ١٣٣٠ هـ و (جدل القرآن) عند السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن ص و ٣٨٦ جواهر البلاغة .. للسيد أحمد الهاشمى الطبعة العاشرة سنه ١٩٣٩ - ١٩٤٠ م مطبعة الأعتماد بمصر و ٢٠٦ وما بعدها البلاغة التطبيقية د. أحمد موسى مطبعة المعرفة .

فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم [1] واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه [2] وبين الله حجاب [3].

فالملاحظ أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يطلب من معاذ أن يبلغهم بمتطلبات الدعوة التى شرحها له دفعة واحدة من الشهادتين وفرضية الصلاة ، وفرضية الزكاة ، بل أوصاه الرسول بقوله عقب كل متطلب بقوله : " فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم .. بكذا . بمعنى : فإن نفذوا ذلك واستقر فى قلوبهم مقتنعين به ، ولم يقل له : فإن شهدوا وأقروا فأخبرهم بجملة هذه المتطلبات دفعة واحدة ، ولكن .. فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم بكذا ... فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم بكذا ... بل نرى الرسول يحذره بألا يغتر بهذه الإطاعات فيطالبهم بأنفس أموالهم - فى الصدقات - حتى لا ينفروا من الإسلام وحتى تنجح دعوته ، وإذا نظرنا حولنا فى كثير من شئون الحياة المتنوعة لكثير من المجتمعات نجدها تنجح أكثر وتتقدم إذا اتبع فيها طريقة التدرج ، أو بالمعنى الحديث " سياسة الخطوة خطوة " أما المفاجأة فى الدعوات والسياسات وكثرة التكاليف فيها دفعة واحدة فهى وسيلة لفشلها [4].

وقد أدرك ذلك علماء النفس والاجتماع فى أيامنا هذه يقول أحدهم : " للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى، والسبب فى ذلك أن الشئ المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان

---

(١) أى احذر أخذ نفائس أموالهم

(٢) بضمير التذكير عودا على المظلوم

(٣) ٣٦٦ جواهر البخارى وشرح القسطلانى - أ.مصطفى محمد عمارة المكتبة التجارية الكبرى- الطبعة السابعة .

(٤) ولهذا نلاحظ فى سياسة اسرائيل والاستعمار الحديث (الحملات الصليبية الحديثة) أنهم ينفذون تلك السياسة واقرأ إن شئت كتاب (معركة المصحف فى العالم الاسلامى) ص ١٩٢ وما بعدها للشيخ محمد الغزالى الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤ م .

فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكـــرر ، إذ أن الشئ إذا تكرر رسخ فى الأذهان رسوخاً تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة "[1] .

أما مجال تطبيق هذا المنهج فى الدعوة فى هذا البحث فهو فى (آيات خلق الإنســان) التى ذكرها القرآن الكريم مرات كوسيلة للدعوة فى مواجهة المكذبين بالقرآن وبـــالبعث ويوم القيامة والحساب والجزاء بالجنة أو النار ، وبوحدانية الله - تعالى - وإظـــهار قدرتـــه متدرجاً فى هذه الوسيلة بالدليل مع عقول الكافرين تدرجاً تصاعدياً لطيفاً ملاحظاً أحوالهم ، بذكر أطوار أو مراحل خلق الإنسان حتى ذكرت فى النهاية المراحل كلها مراعيا حالتـــهم آنذاك ، ولهذا لما كان مجال هذا البحث هو (آيات خلق الإنسان) للاستدلال بـــها علـــى قدرة الله - تعالى - لم أدخل فى ذلك الآيات القرآنية التى تستدل بآيات كونيـــة أخـــرى .. كآيات سورة (ق) " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لهـــا مـــن فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كـــل زوج بهيـــج * تبصـــرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماءً مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيـــد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج "[2] .

وسنرى إن شاء الله مدى نجاح هذا المنهج للإقناع وإنجاح الدعوة ، ولعل الله تعالى - وفقنا فى ذلك .

إن تلك الآيات العظيمة التى نتناولها فى هذا البحث والتى تتحـــدث عـــن خلـــق الإنسان وقصة تطوره فى بطن أمه إلى أن يصير خلقا سويا ذا روح وحياة ، قد تجلت فى هذه الآيات ، آيات من إعجاز القرآن وبلاغته ، وقد تحدث القرآن فى كثير من آياته عن هـــذه النشأة على ترتيب النـــزول فى ســـور : (العلق) و (النجم) و (عبس) و (القيامة) و (المرسلات) و (الطارق) و (يس) و (الفرقان) و (فـــاطر) و (الواقـــعة) و (الحجر) و (الأنعام) و (الصافات)و(غافر)و(الكهف) و (النحل) و (المؤمنـــون) و

---

(١) ١٣٩ روح الاجتماع د . جوستاف لوبون ترجمة أحمد فتحى زغلول . المطبعة الرحمانية .

(٢) الخروج هو بعث الموتى - والآيات من ٦-١٢ ق .

(السجدة) و(الانفطار) و (الرحمن) و (الانسان) و (الحج) ونزلت على هذا الترتيب [1] .

وكلها مكية ما عدا آيات سور (الرحمن) و (الإنسان) و (الحج) فإنها مدنية ، وستكون إن شاء الله – دراسة كل من هذه الآيات حسب ترتيب نزولها ، لنرى كيف تكررت متدرجة مع عقول المنكرين ، ولهذا سنلاحظ أن آيات سورة (المؤمنون) التى نزلت فى أواخر العهد المكى ، وآيات سورة (الحج) التى نزلت فى المدينة وهى آخر الآيات التى تتحدث فى خلق الإنسان قد انفردت هذه الآيات فى السورتين بتفصيل المراحل التى يمر بها خلق الإنسان ، وتنفرد سورة (الإنسان) المدنية بذكر (النطفة الأمشاج) وهى البويضة الملقحة بالحيوان المنوى ، وتنفرد آيات سورة السجدة المكية وهى الآيات قبل الأخيرة من الآيات التى تتحدث فى خلق الإنسان بذكر " سلالة من ماء مهين " – وذكر " نفخ الروح " وتشترك مع سورة القيامة وسورة الكهف وسورة الانفطار بذكر (التسوية) ، وقد سبق القرآن الكريم بذلك العلم الحديث بأكثر من ألف وأربعمائة سنة وسنفصل ذلك – إن شاء الله لنرى كيف تدرجت هذه الأطوار مع عقول المخاطبين بها ، أو من نزلت فى حقهم هذه الآيات ، لتؤثر بذلك فى عقولهم ونفوسهم فتكون النهاية استمالتهم إلى الإيمان بالله ووحدانيته وقدرته والإيمان ببعث هذا الإنسان بعد موته لمحاسبته ومجازاته يوم القيامة إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر " .

والعجيب واللطيف أن أول ما نزل من القرآن الكريم نزل يتحدث عن خلق ذرية آدم التى يعلم الله – أزلا – أنها جاحدة ، وهو قوله – تعالى – " اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم *الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم * " .

---

(١) ترتيب هذه الآيات وسورها حسب النزول : (العلق ١) و (النجم ٢٣) و (عبس ٢٤) و (القيامة ٣١) و (المرسلات ٣٣) و (الطارق ٣٦) و (يس ٤١) و (الفرقان ٤٢) و (فاطر ٤٣) و (الواقعة ٤٦) و (الحجر ٥٤) و (الأنعام ٥٥) و (الصافات ٥٦) و (غافر ٦٠) و (الكهف ٦٩) و (النحل ٧٠) و (المؤمنون ٧٤) و (السجدة ٧٥) و (الانفطار ٨٢) و (الرحمن ٩٧) و (الانسان ٩٨) و (الحج ١٠٣) .

ومن يمعن النظر يجد أن حديث هذه الآيات عن خلق الإنسان يؤسس للآيات الأخرى التى نزلت بعد ذلك تتحدث فى خلقه فمن بلاغة القرآن الكريم أن يستهل نزوله بشيئين : أولهما يهدى إلى الثانى وهو الحث على قراءة القرآن وعلى العلم والتعلم والتعليم ، ولكونه عاماً ، فإن فيه إشارة إلى الآيات التى نزلت بعد ذلك تحث على البحث والنظر والتأمل ، وبخاصة ما يتصل بخلق الله - تعالى - للإنسان الذى ينكر البعث ووحدانية الله - تعالى - والقيامة والحساب والجزاء كقوله - سبحانه - " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " [1] " قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون "[2] وفى تخصيص هذه الآية للعلق (جمع علقة) دون غيرها من مراحل خلق الإنسان - على الرغم من أن العلقة هى الطور الثالث فى خلق ذرية آدم بعد (النطفة) ثم النطفة الأمشاج وهى بويضة الأنثى الملقحة بالحيوان المنوى فى تخصيص هذا الطور بالذات :

أولا : أراد الله أن يخاطبهم بما يعرفون وهو أن العلق - أصلا - شئ أسود يشبه الدود ويكون فى الماء فإذا شربته الدابة تعلق بحلقها [3] ، ثم أطلق على هذه المرحلة من خلق ذرية آدم على سبيل الاستعارة التصريحية ، لتقريب وصفها إلى عقل الإنسان القاصر فكأنه قال صراحة على التشبيه : (خلق الإنسان من شئ يشبه العلق) فإذا خاطبهم بذلك تذكروا - على الفور - حالة الإنسان فى مبدئها فى بطن أمه وتأثروا واتعظوا ، لأن خطابهم بهذا جاء وفق مقتضى حالهم من المعرفة ،فتسميتها علقة ، لأنها تعلق بجدار الرحم بعد أن تصير أمشاجا كما يتعلق هذا الدود الذى يوجد فى الماء والذى يعرفونه جيدا بخلوق دوابهم فوجه الشبه هو التعلق بشئ آخر فى كل منهما ، وإن دل هذا - أيضا - على شئ فإنما يدل على أهمية هذه المرحلة وهى أنها - كما يقول علماء الطب : مبدأ التحول الحقيقى إلى نشوء الجنين [4] وكأن ذلك فى أول ما نزل من القرآن الكريم إشارة

---

(١) ٢١ الذاريات .

(٢) ١٠١ يونس .

(٣) ٢١٤ الآيات الكونية فى القرآن العظيم للأستاذ عبد المنعم السيد العشرى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

(٤) ٣٦٨ خلق الإنسان بين الطب والقرآن د. محمد على البار الطبعة الخامسة ١٤١٤ هـ - الدار السعودية للنشر والتوزيع .

قوية إلى ما نزل بعد ذلك متدرجاً مع عقولهم مما يؤكد قدرة الله ـ تعالى ـ ففيه تأييد مبدئيا لإثباتها مما سيفصله القرآن بعد ذلك بالتدرج مع عقولهم ، يؤكد ذلك أن آية العلق هذه تنزل بالتنبية على بعض أطوار خلق آدم ابى البشر ، ذلك أنها نازلة لعظة ذريته فخاطبهم بما يحسونه أو يعرفونه وهو العلق ـ كما قلت ـ ليكون ذلك أقرب إلى عقولهم وقلوبهم حتى يلزمهم الله الحجة فتكون استمالتهم إلى الإيمان أيسر واسرع فاللفظ (علق) متناسب مع حالهم وعقولهم .

ثانيا : إشارة إلى أن الله ـ تعالى ـ أراد أنْ يمتن على الإنسان فى أول سورة نزلت من القرآن بأن خلقه " من تلك النطفة الدموية الجامدة العالقة بالرحم ، من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته ؛ فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذى يعلم فيتعلم "(١) .

وكذلك باقى الآيات التى تتحدث فى خلق الإنسان فقد جاءت ـ أيضاً ـ متدرجة مع عقولهم ومطابقة لحالهم ، وسنتناولها ـ أيضاً ـ إن شاء الله بالتفصيل ومع ذلك فإننا نلاحظ فيها ـ إجمالاً ـ الآتى :

أولاً : أنها سيقت فى مواجهة المكذبين بالرسالة وبالقرآن والقيامة والبعث والحساب والجزاء وبوحدانية الله ـ تعالى ـ والذين يَدَّعون أن الرسول افترى القرآن من عند نفسه والمستهزئين به ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين يجادلون فى الله وآياته بغير سلطان أتاهم ... ولهذا سيقت هذه الآيات كأدلة فى جملة آيات كونية أخرى للتدليل على وحدانيته ـ تعالى ـ وقدرته على إمكان البعث والحساب والجزاء يوم القيامة .

ثانيا : أن هذه الآيات جميعها ـ ما عدا آيات سور (الرحمن) و (الانسان) و (الحج) نزلت فى مكة وهى فترة اتَّسَمَت بشدة الجدال وشدة الإنكار والتكذيب ، ولهذا فنظم آياتها متميز بالقوة والشدة ومصاحبة أدلة أخرى متناسبة مع أحوالهم .

ثالثاً : أن هذه الآيات تحدثت فى جميع أطوار خلق الإنسان بداية من آدم أبى البشر من (التراب) و (الطين) و (سلالة من طين) و (الطين اللازب) و (صلصال من حمأ

---

(١) ٣٩٣٨ جـ ٦ فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب الطبعة السابعة عشرة- دار الشروق ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

مسنون) و (صلصال كالفخار) و (النطفة) : [الماء – الماء المهين – سلالة من ماء مهين – ماء دافق – مني يمنى – ما تمنون – من نطفة إذا تمنى] و (العلقة) ما عدا آيات (المؤمنون)[1] فقد زادت فيها (المضغة) و (العظام) و (كسوة العظام لحما) ثم (الإنشاء خلقا آخر) التي نزلت في أواخر العهد المكي ، إذ أن ترتيب هذه السورة في النزول الرابع والسبعون وسيأتي تفصيل ذلك ، وعدا أيات القيامة والسجدة والكهف والانفطار فقد صرحت بطور (التسوية) وانفردت سورة السجدة وترتيبها في النزول يسمى ترتيب المؤمنون (مباشرة بذكر (سلالة من ماء مهين) و (نفخ الروح) صراحة . ويلاحظ أنها السورة قبل الأخيرة من السور التي تتحدث في أطوار خلق الإنسان في مكة . كما انفردت سورة (الإنسان) المدنية وترتيبها الثامن والتسعون – بذكر (النطفة الأمشاج) وهي البويضة الآتي ملقحة بالحيوان الذكرى ، كما انفردت سورة (الحج) المدنية بتفصيل المضغة إلى مخلقة وغير مخلقة .

وفيما يلي ترتيب لهذه الأطوار وما يتعلق بها وأسمائها المترادفة وصفاتها . وما صاحب كلا منها من أطوار أخرى والسور الواردة فيها :

١– (التراب) حسب ترتيب النزول – ورد في خلق آدم أبي البشر في سور (فاطر) مع النطفة فقط وفي (غافر) مع (النطفة) و (العلقة) و في (الكهف) مع (النطفة) فقط وفي الحج المدنية مع (النطفة) و (العلقة) و (المضغة) .

٢– (صلصال من حمأ مسنون) في (الحجر) المكية ثم (صلصال كالفخار) في (الرحمن) المدنية .

٣– (الطين) حسب ترتيب النزول في (الأنعام) المكية و (طين لازب) في (الصافات) المكية ثم (سلالة من طين) في (المؤمنون) المكية ثم (الطين) فقط في (السجدة) المدنية .

٤– (النطفة) حسب ترتيب النزول :

---

(1) سورة المؤمنون ... حكاية للقرآن الكريم

أ - النطفة المجردة عن الوصف وعن مصاحبتها لطور آخر فى السور المكية (عبس ويس والنحل)

ب- النطفة الموصوفة فى سورة (النجم) " من نطفة إذا تمنى " و (القيامة) " ... (نطفة من منى يمنى) و (الإنسان) المدنية " ... نطفة أمشاج "

جـ- النطفة المصاحبة لطور أو أطوار أخرى فى سور : (القيامة) " نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى " وفى (فاطر) مع طور (التراب) فقط " من تراب ثم من نطفة) وفى (غافر) مع (التراب) و (العلقة) وفى (الكهف) مع (التراب) و(التسوية) وفى (المؤمنون) مع (سلالة الطين) و (العلقة) و(المضغة) و (لعظام) و (الكسوة باللحم) و (الإنشاء خلقاً آخر) وفى(الحج) المدنية مع (التراب) و (العلقة) و (المضغة المخلقة وغير المخلقة).

د - النطفة المذكورة تحت اسم مرادف - حسب ترتيب النزول (ماء مهين) فى (المرسلات) و (ماء دافق) فى (الطارق) (الماء) فى (الفرقان) - (ما تمنون) فى (الواقعة) - (سلالة من ماء مهين) فى السجدة).

٥- (العلق) ثم (العلقة) حسبت ترتيب النزول : (العلق) فى أول سورة نزلت من القرآن (سورة العلق) و (العلقة) فى سورة : (لقيامة) مع (النطفة والخلق والتسوية) وفى (غافر) مع التراب والنطفة . وفى (المؤمنون) مع (سلالة من طين) ومع (النطفة) و (المضغة) و (العظام) و (كسوة العظام لحما) و(الإنشاء خلقاً آخر) وفى (الحج) مع (التراب والنطفة والمضغة المخلقة وغير المخلقة).

٦- (المضغة) - حسب ترتيب النزول - فى سورتى (المؤمنون) مكية و (الحج) المدنية مع ماسبق .

٧- (العظام) و (كسوتها لحماً) - حسب ترتيب النزول - فى (المؤمنون) فقط مع ما سبق .

٨- (الخلق) ـ " فخلق فسوى " فى (القيامة) ثم (الكهف) و (الخلق الآخر) فى (المؤمنون) مع ما سبق ، وفى (الانفطار) (خلقك فسواك فعدلك) .

٩- (التسوية) - حسب ترتيب النزول فى السور المكية (القيامة) و (الكهف) و(السجدة) و(الانفطار) مع غيرها .

١٠- (نفخ الروح) - صراحة - حسب ترتيب النزول - فى : (السجدة) فقط.

١١- (القرار المكين) أو (الأرحام) - حسب ترتيب النزول الأول فى (المرسلات) و (المؤمنون) المكيتين ، والثانى فى (الحج) المدنية فقط .

١٢- (القدر المعلوم) أو (الأجل المسمى) - حسب ترتيب النزول الأول فى (المرسلات) والثانى فى (الحج) .

ونؤكد أن هذه الأطوار أو المراحل ذكرت كثيراً ، فى مواطن شتى وتدرجت مع عقولهم لأنها تخاطب قوما ضالعين فى الإشراك وفى التكذيب .. لأنهم ورثوا ذلك عن آبائهم وأجدادهم " بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون " [1] فهم مقلدون لموروثات لصيقة بعقولهم سائدة فى مجتمعاتهم فهم سواء فى الإشراك والتكذيب متكبرون مغرورون تأخذهم العزة بالإثم إذا طلب منهم ترك ما ورثوه بهذا التقليد ، أو إذا هزت مكانتهم الاجتماعية وصدق الله إذ قال واصِفاً موقفهم : " وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا : أهذا الذى بعث الله رسولا * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها " [2] إذن فهم لا يستعملون عقولهم ولا يحاولون أن يفكروا أو يتأملوا فلابد إذن من مخاطبتهم بتكرار دعوتهم والتدرج مع عقولهم على قدرها وبالحسنى ووفق مقتضى حالهم ، ولذا خاطبهم بما يشاهدون ويحسون ويعرفون من التراب والطين والطين الصلصال والطين اللازب والحمأ المسنون والنطفة والعلقة حتى تتكون بين أيديهم مواد الأدلة الحسية

---

(١) ٢٢ الزخرف .

(٢) ٤١ ، ٤٢ الفرقان .

التى تصاحبهم صباح مساء فيلزمهم الله الحجة ، ويكـــون فى ذلـــك مدعـــاة لتفكـــيرهم واستمالتهم وإصاغتهم إلى تلك الأدلة فيؤمنوا بالمدلول عليه ولكنهم لما تمـــادوا فى غيـــهم - بعد أن ساق الله لهم هذه الأدلة فى سور العلق والنجم وعبس والقيامة والمرسلات والطـــارق ويس والفرقان وفاطر والواقعة والحجر والأنعام والصافات وغافر والكهف والنحـــل كـــان ذلك تمهيداً قوياً لهم ، لأن يسمعوا المراحل الأخرى غير المحسة لهم مـــن المضغـــة والعظـــام وكسوة العظام لحما والإنشاء خلقا آخر فى سورة (المؤمنون) ثم سلالة الماء المهين [1] مـــع نفخ الروح بعد ذلك فى آيات (السجدة) ولاشك أنه حين نزول سورتى (المؤمـــنون) و (السجدة) فى هذا الوقت كانوا قد سمعوا من قبل الأطوار السابقة ولصقت بأذهانـــــهم لتكرار ذكرها عليهم مرة بعد مرة مع التدرج فى ذلك حتى ألفتها نفوسهم كما كـــان قـــد دخل الكثيرون منهم فى الإسلام وبدءوا يفكرون فى بديع صنع الله الذى آمنوا بوحدانيتـــه وقدرته على بعث الموتى ، لا شك فى ذلك لأن سورة (المؤمنون) ترتيبها الرابع والســـبعون والسجدة الخامس والسبعون ، ولذلك نـــرى فى (الإنســـان) و (الحـــج) أن الآيتين المدنيتين تحدثتا عن مراحل جديدة فى خلق الإنسان لم تذكر فى الآيات المكية بعـد أن سمعوا ما تقدم من المراحل وبعد أن دخل الكثيرون منهم فى الإســـلام واســـتقرت العقـــائد وأخذوا يعملون تفكيرهم وذلك كانفراد آية سورة (الإنسان) المدنية بـــالحديث عـــن (النطفة الأمشاج) وهى البويضة الملقحة ، وحديث آية سورة (الحج) عن المضغة المخلقـــة وغير المخلقة ، وتصريـــحها بالأرحام [2] وكان الحديث من قبل عن النطفة المطلقـــة عـــن وصف الأمشاج ، وعن (القرار المكين) أو " بطون أمهاتكم ".

ومن هنا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن آيات خلق الإنسان المكية والمدنيـــة راعت حال المخاطبين ومكانـــهم وزمانـــهم فخاطبهم بالتكرار والتدرج فيه فجاءت طبقـــاً لمقتضى حالهم فى نظم بديع مصحوب بالأدلة الكونية والقياسية المقنعـــة ، لتبلـــغ قلـــوب السامعين وتأخذ بمجامعها وتستولى على إحساسهم حتى آمنوا بالبعث والحساب والجزاء يوم

---

(1) الـــلالة هى الخلاصة المسلولة فهى شئ قليل وهى بعض النطفة وهى (الحيوان المنوى) بعـــد الاكتشـــاف الحديث - راجع أيضاً صـــــ ١٢٩ .

(2) الأرحام - هنا - جمع رحم وهو بيت الجنين .

القيامة وبوحدانية الله – تعالى – وهذا هو مراد البلاغة القرآنية المعجزة وهو أن تؤثر فى نفوسهم وتتدرج مع عقولهم وأحوالهم ، لتبلغ الغاية المرجوة ، وسنفصل ذلك إن شاء الله – تعالى – .

* * *

* هذا .. وبعد أن عرفنا بلاغة التعبير فى أول ما نزل من القرآن وهو يتحدث عن خلق الإنسان فى طور (العلق) فلنعلم أن الترتيب الثانى لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة (النجم) : " وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * [1] .

وهذه الآيات نزلت فى جملة آيات أخرى سيقت للرد على الكافرين وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة الذى كفر بعد أن تبع محمدا – صلى الله عليه وسلم – [2] وقد ذكرت الآيات فى جملة ما ذكرت مسألة الموت والحياة بقدرة وإرادة الله – تعالى : " وأنه هو أمات وأحيا " ثم عقبت بذكر خلق الزوجين من نطفة مهينة ضعيفة : " وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى *" وكان ذلك دليلا مقدما على المدلول عليه ، وهو بعث الموتى فى الآخرة الذى أكده بأسلوب القصر بالتقديم وبأن " وأن عليه النشأة الأخرى * " أى " لما كانت النشأة الأخرى غيب كان عليها من النشأة الأولى ، دليل على إمكان وقوع النشأة الأخرى ، فالذى خلق الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى قادر – ولا شك – على إعادة الخلق من عظام ورفات ، فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق "[3] فكأنه – سبحانه وتعالى – يقول : كما أنه خلق البداءة فهو قادر على خلق

---

(1) ٤٢–٤٧ سورة النجم .

(2) ٢٩٨ أسباب النزول للنيسابورى – مكتبة المتنبى – والتفسير الكبير للفخر الرازى ٧٦٤ جـ ٨ وصفوة التفاسير للصابونى ٢٧٨ جـ ١٧ .

(3) ٣٤١٧ جـ ٦ فى ظلال القرآن .

الإعادة " [1] وهى النشأة الأخرى ، وصدق الله : " وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " [2] .

ويلاحظ أن هذه أول آية تذكر النطفة ، وأنها اكتفت بها دون ذكر أطوار أخرى أرقى ، ذلك أنها هى المحسة والمشاهدة بالنسبة لهم وهم يعلمون علم اليقين أنها هى التى تصير جنينا ثم مولودا ثم صبيا ثم شابا يبلغ الأشد ثم كهلا ثم يموت – هذا إلى جانب أنهم مازالوا فى بداية الرد عليهم بأدلة مواد خلق الإنسان ، وعلى كل فهى دليل قوى على إمكان البعث مصاحبا [3] لهم والأحرى أن يدفعهم إلى التفكير فى أمر البعث وإمكانه.

* * *

* والترتيب الثالث لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة (عبس) : " قتل الإنسان ما أكفره ؟! * من أى شئ خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره * كلا لما يقض ما أمره * فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا وعنبا * وقضبا وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم " [4] .

هذه الآيات تعالج جحود الإنسان وكفره الفاحش بربه وهو يذكره بمصدر وجوده وأصل نشأته وتيسير حياته [أو تيسير خروجه من بطن أمه] وتولى ربه له فى موته ونشره " [5] ولكن هذا الإنسان يقصر بعد ذلك فى أمر الله – تعالى – " كلا لما يقض ما أمره " و " كلا " ردع للإنسان مما هو عليه من كفران النعم البالغ نهايته ، وقوله : " لما يقض ما أمره " بيان لسبب الردع ، و (لما) نافية ، ونفيها غير منقطع [6] . لأن نفيها فى الماضى

---

(1) ٢٥٩ جـ ٤ تفسير القرآن العظيم لابن كثير – مكتبة الحلبى .

(2) ٢٧ الروم .

(3) (مصاحبا) حال من الخبر الموصوف (.. دليل قوى مصاحبا) .

(4) ١٧–٣٢ عبس .

(5) ٣٨٢٢ جـ ٦ فى ظلال القرآن .

(6) ٤٥ جـ ٣ روح المعانى للألوسى مكتبة دار التراث .

متصل بالحال وذلك يفيد أن العجب والكبر مازالا يلازمان الإنسان حتى الساعة التى هو فيها [1] .

هذا ويلاحظ - أيضاً - أن هذه الآيات اكتفت - أيضاً - بذكر النطفة (ماء دافق) من أطوار خلق الإنسان ، لأنهم مازالوا فى فترة الجدال وعدم الإيمان . إذ لو خوطبوا بأطوار أعلى غير معروفة لهم لم يستجيبوا لعدم فهمهم ماهو مخالف لمقتضى حالهم . فجاءت هذه الآيات - وترتيبها الثالث بين آيات خلق الإنسان - مكتفية بذكر النطفة - أيضاً - لمعرفتهم بها جيداً ، ولتنبيههم وإيقاظهم وبعث تفكيرهم إلى جانب أنه ذُكر بعد ذلك دليل آخر يدعم دليل النطفة وهو متصل بما يلازم الإنسان فى حياته صباح مساء وله صلة قوية بماء من نوع آخر غير الماء المهين (النطفة) وهو طعامه وكيفية تيسيره لهم بوسائل من صنع الله - تعالى - " فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * ..... متاعا لكم ولأنعامكم " .

وأرى أن الفاء فى قوله : " فلينظر .. " واقعة فى جواب شرط محذوف وأصل الكلام : إذا كان الإنسان غير مصدق أن نشره (نبعثه) بعد أن قدمنا له دليل خلقه الأول من النطفة الضعيفة المهينة التى يعرفها جيداً ودليل تيسير خروجه من بطن أمه فلينظر دليلاً آخر *هو " ..... انا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * ..... ولأنعامكم " .

وهذا الدليل مشاهد لهم يقرب الله به - سبحانه وتعالى - إمكان البعث - أيضاً - إلى عقولهم ، فكما أنه - سبحانه - يحي الأرض الجدباء بالماء فتخرج هذه النعم للإنسان الجاحد فهو - سبحانه - كذلك يخلق الإنسان من ماء مهين ثم يميته ثم يبعثه خلقاً جديداً فوجه الشبه بين الدليلين واضح ، فالنطفة كالماء للزرع ورحم الأنثى كالأرض ، وثمر النبات والشجر كالجنين فى بطن أمه ، وصدق الله " نساؤكم حرث لكم " [2] .

* * *

---

(1) ٣٨٥ جـ ١٠ اعراب القرآن وبيانه محيى الدين الدرويش دار ابن كثير دمشق - بيروت .

(2) ٢٣٣ البقرة .

- ثم كانت الآيات التى ترتيبها الرابع بين آيات خلق الإنسان وهى آيات سورة (القيامة) : " ..... أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى " ؟! [1] .

تبدأ هذه السورة بالقسم على إمكان الله البعث " لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة [2] أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوى بنانه * يسأل أيان يوم القيامة ...

وسبب نزول هذه السورة أنها ترد على أقبح موجة وأعنف جدال حول البعث من عدى بن ربيعة حين أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له : حدثنى يا محمد عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به ، أو يجمع الله هذه العظام ؟ فأنزل الله هذه السورة وجاءت من أولها إلى آخرها ترد عليه وعلى غيره . وتعالج موضوع البعث والجزاء . وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها وشدائدها .. وما يلقاه الكافر فيها من المصاعب والمتاعب [3] .

وقد جاءت هذه الآيات بنظم جديد وأطوار جديدة زائدة عما سبق . إذ احتوت على استفهامات ثلاث للتقرير والتوبيخ والتقريع فكانت كالأجراس فى الآذان وزادت على طور النطفة ثلاثة أطوار أرقى هى (العلقة) و (الخلق) أى هذا الإيجاد والتقدير على أحسن ما يكون ، والتسوية . وأحسن ما قيل فى تفسيرها ما قاله الشوكانى " أى خلقك من نطفة ولم تك شيئاً فسواك رجلاً تسمع وتبصر وتعقل " [4]

---

(1) ٣٦ - ٤٠ القيامة

(2) أحسن تفسير دار حول (لا) أنها نافية داخلة على محذوف والتقدير : لا ، رغم المكذبين بالبعث أقسم بيوم القيامة وكذا ما أشبه ذلك - انظر ٤٧٦ جـ ٥ فتح القدير للشوكانى

(3) ٤٨ جـ ١٩ صفوة التفاسير .

(4) ٥٦٣ جـ ٥ فتح القدير .

ومعناه - كما أرى - والله أعلم - نقل قوامك - بكسر القاف - أى مادة تكوينك فى بطن أمك من حالة السيولة والرخاوة إلى حالة التماسك ، إذ أنه حتى طور المضغة كان مادة رخوة ، ثم انتقل منها إلى العظام .... وكان رد القرآن قوياً على قدر الإنكار فهو يدخل تحت القاعدة " لكل فعل رد فعل مساوٍ له فى المقدار مضاد له فى الاتجاه " ، ولهذا - أيضاً - ابتدأت السورة بالقسم " لا أقسم بيوم القيامة * ولا اقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه * ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه * يسأل أيان يوم القيامة * ؟ ثم ختمت بتأكيد ما بدأت به وما كانت من أجله هذه البراهين وهو إثبات قدرة الله - تعالى - على هذا البعث بأسلوب استفهام تقريرى لطيف : (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى " [1] ؟ ! بلى إنه لقادر . وإذا دققنا النظر فى هذه الأطوار الأرقى التى تلى النطفة فى خلق الإنسان نجدها مازالت على قدر عقولهم ووفق حالتهم الاجتماعية ودرجة فهمهم لخلق الإنسان وذلك أن طور النطفة هم يعرفونه ويحسونه جيداً وطور العلقة عرفهم الله بـ وقَرَّبَ صورته إلى عقولهم فى أول آية نزلت من القرآن الكريم بتشبيه هذا الطور بعلق الماء الذى يعلق بحلوق دوابهم عند شربها الماء فهم يعرفونه - أيضاً - جيداً وخبرتهم به واضحة ، وأما طور(الخلق) فهم كذلك يعرفونه جيداً أيضاً - ويعترفون به ، بل يعترفون بقدرة الله - تعالى - فيه ، والقرآن يؤكد ويسجل عليهم ذلك ، إذ يقول الله - تعالى - " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " [2] و " التسوية " وهى - كما ذكرنا - الانتقال من حالة السيولة التى يعرفونها أو حالة الرخاوة ، إلى حالة التماسك واكتمال الخلقة حتى يصير إنساناً كاملاً عاقلاً سميعاً بصيراً ، وهم يشاهدون ذلك فى خلقة كل منهم وفى خلقة هذا المعاند الذى جادل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأن القيامة والبعث ، ولا أحد منهم ينكر ذلك ، ولا يستطيع أنْ ينكره وإلا أنكر ذاته ، ومن هنا نعلم لماذا تدرجت هذه الآيات معهم ، وزادت (العلقة) و (الخلق) و (التسوية) فكان رد القرآن كما قلت - على قدر الإنكار وعلى قدر الجدال فهو يدخل تحت القاعدة السابقة

---

(1) نهاية السورة .

(2) ٨٧ الزخرف .

" لكل فعل رد فعل " أو هو رد شـــديد مؤكد فى مقابل الإنكار الشديد كما فى قولـــه – تعالى – : " زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى ، وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير " [1] فالزيادة فى هذه الأطوار واختيارها مناسب لحال من فى حقه الكلام ومن كان على شاكلته ، كأنها تقول لهم : ألم تروا بأعينكم هذه الخلقة اللطيفة العجيبة التى كـــان أصلها النطفة التى تعرفونـــها جيداً ؟ ثم العلقة التى عرفتم بـــها من قبـــل ثم نقلـــه الله إلى مخلوق مستوٍ كامل ؟ أليس من فعل ذلك قادراً على بعث الموتى من جديد ؟! وسيحاســـب الكافرين يوم القيامة ويجازيهم على إنكارهم . وسبحان من هذا كلامه !

* * *

* والترتيب الخامس لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة المرسلات : "... ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القـــادرون * ويل يومئذ للمكذبين " [2] .

نزلت سورة المرسلات من أولها إلى آخرها للرد على منكرى (القيامـــة) وبعـــث الموتى فيه والحساب والجزاء بعد الأقسام الخمسة التى افتتحت بها الســـورة علـــى أن مـــا يوعدون به واقع لا محالة وحددت السورة ميعاد وقوع ما كذبوا به : بيـــوم تطمـــس فيـــه النجوم وتتشقق فيه السماء ، وتنسف فيه الجبال : يوم يأتى الرسل لوضع تقارير عن أممهم . يوم يتحقق فيه على المكذبين قوله تعالى عقب كل مقطع من مقاطع السورة : " ويل يومئـــذ للمكذبين " .

ونلاحظ أن مقاصد السورة تجمل فى خمسة مقاصد :

١– مشاهد يوم القيامة وما هو واقع فيه والأقسام المؤكدة على أن ما كذبـــوا به واقع فى هذا اليوم وتحديد ميعاد وقوع ذلك [3] .

---

(1) ٧ التغابن .

(2) ٢٠– ٢٤ المرسلات .

(3) يتمثل ذلك فى الآيات من أول قوله تعالى " والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشـــرا * فالفارقات فرقا * فالملقيات ذكرا * عذرا أو نذرا ، إنما توعدون لواقع * ... إلى قوله تعالى " وما أدراك مـا يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين " (١– ١٥) .

٢- وعيد المكذبين بأن مصيرهم هو نفس مصير المكذبين السابقين " ألم نهلك الأولين * ثم نتبعهم الآخرين * كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذبين " (١).

٣- جزاء هؤلاء المكذبين فى ذلك اليوم من العذاب بالنار والعذاب بالصمت والكبت (٢)

٤- جزاء المتقين فى ذلك اليوم ويتمثل ذلك فى قوله - تعالى - " إن المتقين فى ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزى المحسنين " (٣).

٥- الامتنان والاستدلال بشيئين كان على المكذبين ألا يكذبوا إذا نظروا إلى عظيم قدرة الله - تعالى - فى هذين الشيئين وهما (النشأة الأولى) أو (خلق الإنسان) وما يتمثل فيه من العجائب والغرائب الدالة على قدرة الله التى لا تدانيها قدرة و(الأرض) التى جعلها الله ضامة للأحياء والأموات ، وما خلق عليها من جبال راسيات لاتزانها وما أنزل عليها وأسكن فيها من الماء العذب الذى يشربونه وينتفع به هؤلاء المكذبون ، ويتمثل ذلك فى قوله - تعالى - " ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرين * ويل يومئذ للمكذبين * ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياءا وأمواتا * وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا * ويل يومئذ للمكذبين * (٤) ونلاحظ أن

---

(١) ١٦ - ١٩ .

(٢) يتمثل ذلك فى قوله - تعالى - " انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليل ولايغنى من اللهب * إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون * ولايؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين *) (٢٩ - ٤٠) .

(٣) ٤١ -٤٤ المرسلات

(٤) ٢٠- ٢٨ .

آيات (خلق الإنسان) و (آيات جعل الأرض كفاتا تضم الأحياء والأموات والجبال الراسيات والماء العذب الفرات .

نلاحظ أن هذين الدليلين أو المتنين جاءا مباشرة قبل بيان مصير المكذبين وجزائهم في يوم الفصل [1] – ومن يدقق النظر يجد أن ذلك لحكمة إلهية ، كأن الله تعالى – يقول لهم (لو تدبرتم خلق الله في هذا الكون في الإنسان والأرض والجبال والماء لآمنتم بهذه الغيبيات من القيامة والبعث فيه والحشر والحساب والجزاء بالجنة أو النار ، ذلك أن من خلق هذه الكائنات التي ترونها بأعينكم وتتمتعون بها وتعترفون بأن الله هو الذي خلقها هو قادر على إقامة القيامة وبعثكم من جديد لحسابكم وإيقاع هذا العذاب بكم ، لو تدبرتم ذلك ما كان مصيركم هذا العذاب .)

- نأتي إلى تفصيل الكلام في (آيات خلق الإنسان) موضوع هذه الدراسة " ألم نخلقكم من ماء مهين .... فقدرنا فنعم القادرون " .

* هذا (الماء) المهين في حد ذاته – دون وصف – يحمل صفة المهانة والضعف ، ووصفه بالمهين تأكيد لهذا الوصف ، ودليل على أنه في حد ذاته هو لا قيمة له ولا قدرة له إلا بقدرة الله – سبحانه – والمدلول عليه وقوع البعث يوم القيامة والحساب والجزاء ، وهذا الدليل كما قلت ملموس معروف لهم جيدا وقد حدثوا به من قبل بلفظ (النطفة) و " مني يمنى " .

<u>والملاحظ أن الآيات اكتفت بهذا الطور من بين أطوار خلق ذرية آدم ولعل ذلك لما يأتي :</u>

١- قد يكون ذلك اعتمادا على الأقسام الخمسة السابقة على أن ما يوعدون به في يوم القيامة من البعث وحسابهم ..... لواقع .

٢- أن هذا الطور (الماء المهين) يكفي كدليل على وقوع القيامة وامكان البعث فيه ، ذلك أنه أكثر حسية لهم حيث يمارسون أسبابه فيحسونه إحساسا قويا ، وهم يعرفون جيدا أنه سبب وجود الجنين الذي يكون إنسانا سويا فهو لا يخاطبهم بالغيبيات التي لايعرفونها ولا بشئ لا يحسونه

---

[1] من ٢٠ – ٢٧ ثم من ٢٨ – ٤٠ .

بأنفسهم فى أنفسهم بل بشئ يمارسون أسبابه ويسعون إليه سعيا حثيثا ، بل يدركون أبعاده .

٣- أنهم مازالوا مصادرين فى غيهم مقلدين لآبائهم لاغين لعقولهم وتفكيرهم فلا تفيد معهم الآن ذكر أطوار أرقى قد لا يفهمونها أولا ينتبهون إليها ، ولأن التدليل لهم بما لا يعرفون خروج عن مقتضي حالهم ؛ بل عن التبليغ البليغ الذى يأخذ بمجامع القلوب والعقول بل عن الإعجاز القرآنى - وحاشا لله - تعالى .

٤- أعاد ذكر النطفة هنا (الماء المهين) - على الرغم من ذكرها فيما سبق لقرع آذانهم وتنبيه حواسهم وإيقاظهم من غفلتهم لكونهم يعرفونه جيدا والتكرير وسيلة جيدة للاقناع وتنبيه الحواس ولفت النظر وتفتيح العقول ثم التأثير فى النفوس [1] .

٥- أنه تدرج مع عقولهم فذكر مع هذا الطور شيئين معروفين لهم لتعضيده وهما من لوازمه الأول : (القرار المكين) أو (بطن الأم) - حسب فهمهم له - والذى يحفظ هذا (الماء) ويتحول فيه من ضعف إلى قوة حتى يخرج جنينا يستقبلونه طفلا بفرح وسرور . والثاني : (القدر المعلوم) وهو المدة المعلومة لهم وهى التى يمكثها الجنين فى بطن أمه وهى أربعون أسبوعا تقريبا ، وهم يعلمون جيدا كم يمكث الجنين فى بطن أمه ؟ .

أما ذكر الأطوار الأعلى كالعلقة والتسوية فى سورة القيامة السابقة على المرسلات - فى النزول - فلأن المقام هناك مقام شدة جدال ، وتحد شديد مباشر من عدى بن ربيعة للرسول - صلى الله عليه وسلم [2] - وليس الموقف هنا كذلك.

٦- أن دليل (خلق الإنسان) هذا صاحبه - كما هو ديدن القرآن الكريم الى لاحظناها فى هذه الآيات صاحبه دليل من الكون العظيم يعضد ويقوى

---

(1) انظر مقال د/ جومستاف لوبون فى الكرار ص ٤ .

(2) راجع ص ٩٢ .

هذا الدليل وهو جعل الأرض كفاتا أى تضم الأحياء والأموات وذلك مصدر عظة عظيمة - كما جعل فيها رواسى الجبال ، والماء العذب الفرات : " ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياءا وأمواتا * وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا * [1] وسبحان من كان هذا كلامه !!!

* * *

* الترتيب السادس لآيات (خلق الإنسان) هو لآيات سورة (الطارق)

" والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق ؟ * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر * فماله من قوة ولا ناصر * " .

يقسم الله - تعالى - بالطارق الذى هو النجم الذى يثقب ضوؤه الظلام وينفذ فيه على أن كل نفس عليها حافظ من الله تعالى ، ومجىء قوله - تعالى - بعد ذلك مباشرة " فلينظر الإنسان مم خلق * ..... " يشعر بأن هذا الحافظ من الله يبدأ مع الإنسان منذ أن يكون ماء دافقا ، بدليل الفاء الواقعة فى جواب شرط محذوف ، إذ أن المعنى : إذا أدرك الإنسان أن كل نفس عليها حافظ من الله - تعالى - منذ أن يكون ماءا دافقا فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق تكفل الله برعايته منذ ذلك حتى يكون خلقا سويا .

* ونلاحظ هنا - أيضا - أن هذه الآيات اكتفت بذكر الطور الأول (النطفة) " ماء دافق " فى خلق ذرية آدم الجاحدة فذكرته هنا مقدمة للدليل على المدلول عليه " إنه على رجعه لقادر " إنه الله الذى أنشأه ورعاه إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت وإلى التجدد بعد البلى . تشهد النشأة الأولى بقدرته [2] تشهد النشأة الأولى بقدرته كما تشهد بتقديره وتدبيره ، فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل [3] " يوم تبلى السرائر " .

---

(1) ٢٥ - ٢٧ المرسلات .

(2) ٣٨٨٠ جـ ٦ فى ظلال القرآن .

(3) ٣٨٨٠ فى ظلال القرآن .

ونلاحظ أنه لم يطلق على هذا الطور اسمه المشتهر به " نطفة" بل ذكرته باسم الماء ، وإذا كان هذا الماء فى (المرسلات) (ماء مهينا) أى ضعيفا لا قيمة له ولا حول ولا قـــوة ولا قدرة له إلا بقدرة الله – تعالى – وصنعته العجيبة : تدرجت الآيات هنا – مع عقول المكذبين فوصفته بوصفين ملائمين ملازمين له منضمين إلى وصف المهانة : " مـــاء دافق " أى مدفوق بمعنى مدفوع بشدة [1] ، وفى التعبير باسم الفاعل " دافق " بدلا من اســم المفعول " مدفوق " بلاغة المجاز العقلى باسناد الدفق إلى غير ما هو له حقيقة ؛ للمبالغـــة فى دفقه ؛ ليستشير حواسهم ، وينبههم بشدة إلى قدرة الله – تعالى – فى خلق الإنســـان مـــن عدم وأ،ه قادر على إعادته بل الإعادة أهون : " وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهـــون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " [2] والوصـــف الثانى : " يخرج من بين الصلب والترائب " أى من بين صلب الرجل وترائـــب المـــرأة أى عظـــام صدرها العليا ، وفى ذلك إمعان للمكذبين فى هذا الدليل ، وتدرج معهم بتقديمه بهذا الاسم الموصوف بهذين الوصفين الجديدين اللذين يحس بهما كل من الرجل والمرأة فلعلهم يفيقون فى هذه اللحظة أو حين تذكرها إلى حقيقة البعث وإمكان حصولـــه ، لأنهم يمارسون بأنفسهم دليله العملى فلعلهم يؤمنون ، ولهذا نلاحظ أنه لا داعى إلى ذكـــر أطوار أرقى وهم مازالوا مولعين بتقليد آبائهم وأجدادهم لا يعملون عقولهم .

ثم بعد ذكر هذا الدليل المقنع ذكر المدلول عليه ، لأنـــه مؤكـــد بثـــلاثة تأكيدات : القصر بالتقديم " على رجعه لقادر " [3]، وبإن " إنه " وفى تقديم الدليل موصوفـا بتلك المواصفات على المدلول عليه – (البعث) بلاغة عليا لم يرق إليـــها البشـــر الذيـــن وصفوا بأنهم أرباب البلاغة والفصاحة فى عصر نزول القرآن ولا فى غير ذلـــك العصـــر ، وذلك لأنهم إذا اقتنعوا بالدليل اقتنعوا بإمكان المدلول عليه بسهولة ويسر . وتلـــك بلاغـــة القرآن المعجزة . وسبحان من هذا كلامه !!

---

(1) ينظر المعجم الوسيط (دفق) .

(2) ٢٧ سورة الروم .

(3) طريق القصر تأكيد فوق تأكيد ، لأن جملة القصر هى فى الواقع تفيد معنيين : أحدهمـــا يفيـــد الإثبـــات ، والآخر يفيد النفى ، وهنا تفيد إثبات قدرة الله – تعالى – على البعث وحده ونفى هذه المقدرة عن غيره.

* والترتيب السابع لآيات (خلق الإنسان) هو لآيات سورة يس : " أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * " (١) .

يروى فى سبب نزول هذه الآيات أن ابى بن خلف جاء بعظم رميم وفته فى وجه النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال ساخرا : أتزعم يا محمد أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتا مثل هذا فقال : نعم ويبعثك ويدخلك النار " (٢) .

ونلاحظ هنا - أيضا - ذكر طور النطفة هنا وحدها دون ذكر أطوار أخرى مما سبق ، وإذا دققنا النظر فى ذلك نجد أن ذلك يرجع إلى أسباب حكيمة هى :

١- أن القرآن الكريم تدرج مع عقولهم فذكر مع دليل طور النطفة ثلاثة أدلة كونية ليست أقل من هذا الدليل بل أعظم هى ،

أ- تذكيرهم بخلقهم أول مرة " قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم " وهم يعترفون بخلق الله لهم كما يخبر القرآن الكريم : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " (٣) .

ب- إخراج النار من الشجر الأخضر بقدرته - سبحانه وتعالى وهم يشاهدون ذلك كثيرا وليلا ونهارا .

ج - الثالث وهو أعظم وأكبر وهو خلق السموات والأرض وبيان أنه قادر على أن يخلق مثلهم " أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ..... " وهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقها " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر

---

(١) ٧٧- ٨٣ يس .

(٢) ٢٧٤ أسباب النزول للنيسابورى .

(٣) ٨٧ الزخرف .

الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " وصدق الله : " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [1] .

وفى هذا – أيضا – تدرج معهم من الدليل الذى يتصل بهم مباشرة إلى الأدلة الكونية التى يشاهدونها محيطة بهم صباح مساء ، ولا ينكرها إلا أعمى البصر والبصيرة معا . وسبحان من هذا كلامه !

٢- أن هذا الطور (النطفة) له صلته الوثقى بموضوع هذه الآيات وسبب نزولها للمقارنة المباشرة القوية بين هذه النطفة وصفاتها ومنها السيولة وبين هذا العظم الذى فتته أبي بن خلف أمام الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو يعلم أنه كان عظما قويا لإنسان حى وأن مبدأه هو هذه النطفة التى ذكروا بها وحدها .

٣- أن أبي بن خلف فى إنكاره لم يكن على درجة عدى بن ربيعة [2] وإن كان كل منهما قد أتى بعظم رميم وفتته إلا أن عديا أنكر القيامة بقوله صراحة : " لو عاينت ذلك اليوم – يا محمد – لم أصدقك وزاد فأنكر البعث بقوله : " أو يجمع الله هذه العظام " على سبيل الاستفهام الإنكارى التعجبى " [3] أما ابى فقد انصب كلامه على انكار البعث فحسب بقوله : أتزعم يا محمد أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتا ؟! فجاء الرد على كل منهما باطوار خلق الإنسان بما يتناسب مع درجة إنكاره من مصاحبة النطفة لأطوار أخرى : العلقة والخلق والتسوية فى الرد على عدى الشديد الإنكار الشديد الجدال ، والاكتفاء بذكر طور النطفة مع أبي إلى جانب أنه أنكر القيامة إنكارا قبيحا يخرج عن كل العقول فقال : لو عاينت ذلك اليوم يا محمد أصدقك .

---

(١) ٥٧ غافر .

(٢) انظر ص ٩٢ .

(٣) راجع ص ٩٢ .

٤- فى الاكتفاء بذكر النطفة - أيضاً - تعريض وتهكم وتبكيت وتقريع وتوبيخ لمن نزلت فى شأنه هذه الآيات ومن كان على شاكلته حيث يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم من المنشأ الأول " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ... " كأن المعنى : إذا كان الله قد خلقك إنساناً حياً عاقلاً ذا أعضاء وعظام وأجهزة متعددة نافعة لك من هذه النطفة الضعيفة فكيف لا يمكن أن يوجدك من عدم مرة أخرى ؟!!

٥- أن هذا الطور (النطفة) دليل قوى فى الإقناع سهل فى الفهم لصلتهم القويه به ، إذ يحسونه إحساسا قويا وهم يعلمون أن الجنين يتكون منه . وسبحان من هذا كلامه !!

* * *

والترتيب الثامن لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة الفرقان : " وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيراً * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا * ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا * وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجراً محجورا * وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا*) [1] .

محور هذه السورة يدور حول إثبات صدق القرآن وصحة رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وحول الإيمان بالقيامة والبعث والحساب والجزاء ووحدانية الله - تعالى - وتسلية الرسول ، ودحض من يستهزئون به - صلى الله عليه وسلم - ولهذا فقد سبقت خمسة أدلة على قدرة الله - تعالى - تبدأ بقوله -تعالى " ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولوشاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ... وكان خامس هذه الأدلة دليل خلق الإنسان " وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نَسَباً وصهرا وكان ربك

---

(1) ٤٨-٥٤ الفرقان .

قديراً " (١) ولعل تأخير هذا الدليل إلى آخر الأدلة لِيَلِي ماءى البحرين : العذب والمالح السابقين عليه مباشرة " وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا " وأيضا ليكون بعد ماء السماء " .. وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ... " كان ذلك الاقتران ونظم الكلام هكذا لتسهل المقارنه بينه - وهو الذى خلق الله منه الانسان - وبين ماء البحر العذب ، وماء البحر الملح ، وما السماء فتظهر بتلك المقارنة قدرة الله سبحانه بأن الماء الذى خلق منه الانسان غير مَاءَى البحرين وغير ماء السماء فإن لماء الإنسان صفات خاصة يعرفونها جيداً تستدعى تفكيرهم وتحفزهم - على الأقل على التأمل والمقارنة والاعتراف بهذه الخصوصية ولو على قدر عقولهم وما يشاهدون من أوصافه الظاهرة لهم فليسألوا أنفسهم : لابد أن فى هذا الماء المختلف الأوصاف أسراراً كان منها خلق الإنسان وإلا فهل كل ماء كذلك ؟! إذ أن " هذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضخم من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء ... ولو راح الانسان يدقق فى هذا الماء الذى يخلق منه الإنسان لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة الكامنة فى الأجسام الدقيقة البالغة الدقة التى تحمل عناصر الوراثة للجنس كله وللأبوين وأسرتيهما القريبتين لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه فى الحياة (٢) " هذا إلى جانب ما صرحت به الآيات من وجه الشبه الواضح بين الماء النازل من السماء والماء الذى خلق الله منه الإنسان ، إذ كل منهما يترتب عليه خلق جديد وإحياء من عدم : " وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا * وهو الذى خلق من الماء فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا * " فمن أمعن النظر فى ذلك ايقن أن من قدر على خلق هذه المياه وعلى الخلق من عدم فى الحالتين فهو قادر على إعادة خلق الإنسان من عدم كذلك ، وفى هذا بلا ريب جرس قوى ينبههم إلى البحث والمقارنة والاستيقاظ من

---

(١) ٥٤ الفرقان .

(٢) ٢٥٧٣ المجلد الخامس فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

غفلتهم ، ومن عكوفهم على تقليد أسلافهم تقليداً أعمى فيوقنوا أن من خلق الإنسان من هذا الماء المهين قادر على بعثه من جديد وهو أهون عليه ومن هنا تتضح الحكمة الإلهية فى الاكتفاء - هنا - بذكر الطور الأول وباسم (الماء) بخاصة - فى خلق الإنسان و الحكمة هى تلك المقارنة الدامغة وذلك القياس المنطقى الذى تخر له العقول وتعنو له النفوس - إلى جانب أنه لا فائدة - أيضاً - من ذكر الأطوار الأرقى فى هذا الوقت حيث إنهم مازالوا يهملون التفكير وإعمال العقل ، وفى ذلك ما فيه من التعريض والتهكم بهم ، إذ أنهم لو فكروا وتدبروا قليلاً لايقنوا وآمنوا .

وأما وصف هذا (الماء) بجعله " نسبا وصهرا " - هنا - فهذا تدرج آخر مع عقولهم - مدعوم بهذه المقارنة - فى وصف هذه النطفة التى يعرفونها جيداً بعد أن وصفت من قبل بأنها " ماء مهين " ثم " ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب " ثم هنا بأن الله - سبحانه - يجعل منها النسب والصهر اللذين يعتزون بهما ويتفاخرون فكان ذلك ليستحثهم ويبعث فيهم روح التفكير بذكر النسب والصهر المنسبين عن هذا الطور (الماء - النطفة) وفى ذلك أيضاً - إظهار المنة بذلك على الإنسان الجاحد ، كما أن فيه تفخيما لهذا الماء الموصوف بتلك الأوصاف المتعددة والتى هى منشأ هذا الإنسان الذى لم يكن شيئاً مذكورا ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يكذبون ما أنزل الله وينكرون قدرته - سبحانه - ثم أفلا يستطيع الخالق - جلا وعلا - أن يبعثه من جديد كما خلقه أول مرة ؟! بلى " وكان ربك قديرا " [1] " وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " [2] وسبحان من هذا كلامه !!!

* * *

والترتيب التاسع لآيات خلق الإنسان ، هو لآيات سور فاطر " والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور * ..... والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا

---

(1) آخر هذه الآيات .

(2) ٢٧ الروم .

بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير * " وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير "[1] .

وهذه السورة تعالج - أيضا - مسائل العقيدة كوجود الله - تعالى - ووحدانيته ، وبعث الموتى وقدرته - سبحانه - على الخلق وإيجاد الأشياء من عدم إلى غير ذلك - وآية خلق الإنسان قد ذكرت من أطوار خلقه طورين فحسب أحدهما فى خلق آدم أبى البشر وهو التراب - وهو يذكر لأول مرة - والثانى فى خلق ذريته وهو (النطفة) ثم أردف النطفة بما يترتب عليها أو ما تترتب عليه وهو الزواج " ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا " ثم أردف الزواج بما يترتب عليه وهو حمل الأنثى ووضعها وأن هذين لا يتمان إلا بعلم الله - تعالى - " وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه" ثم أردف ذلك بذكر عمر المولود المقدر من طوله أو قصره بإرادة الله - تعالى - " وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب " ثم عقب على ذلك ببيان أن ذلك كله مقدور لله - تعالى - فى يسر وسهولة : إن ذلك على الله يسير " .

وهذا الحديث عن الخلق من النطفة وعن الزواج هو نفسه الحديث عن الماء الذى خلق الله منه بشرا فجعله نسبا وصهرا فى سورة الفرقان " وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا * " وفى ذلك تدرج وترق عما سبق فى ذكر النطفة التى يعرفونها جيدا بذكر ما يهفون إليه وما يعتزون به وهو الزواج والمصاهرة لما فيهما من العزة بالذرية وبالحسب والنسب والمصاهرة حتى يؤثر فيهم بما هو محس لهم كل الإحساس ، ولا يحتاج إلى عميق فكر أو جدال أو نقاش لأنهم يمارسون الوسيلتين (النطفة والزواج) جيدا ويشاهدون أثرهما .

---

(1) ٩ - ١٣ فاطر .

* هذا ..... ولعل ذكر التراب – هنا ولأول مرة – مع النطفة لأن هذا الدليل جاء بعد حديث الآية السابقة عن إحياء الأرض الميتة – وهى من التراب – أيضا – بوساطة ماء السحاب النازل عليها ولهذا شبه بذلك بعث الموتى وصدق الله " والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور* "

×× وهنا – أيضا – تدرج جديد مع العقل الإنسانى ، إذ بعد أن تحدث بإفاضة عن مرحلة النطفة وأوصافها اللصيقة بهم ولم يقتنعوا ومازالوا فى غيهم سادرين مع أنهم يعرفونها جيدا بدأ يخاطبهم بشئ يؤازر طور النطفة ، إذ فيه سر الله – تعالى – وقدرته على الإيجاد والخلق من عدم وهو شبيه به فى كونه – أيضا – ماء ، وفى كونه بداية إيجاد شئ معدوم وهو ملموس لهم جيدا لأنهم يراقبونه صباح مساء ناظرين إلى السماء يراقبون نزوله فى لهفة وإلى الأرض فى حسرة وتكاد تكون تلك المراقبة علما عندهم يتوارثونه جيلا عن جيل وصغيرهم عن كبيرهم ألا وهو الماء النازل من السحاب المسوق إليهم بالرياح التى يرسلها الله – سبحانه – لتنزل الماء لإنبات نباتهم على الأرض الترابية التى خلق منها آدم – عليه السلام – وهو ماء – ايضا – كما أن النطفة ماء ، وصدق الله " فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ... " ولهذا عقب بتشبيه بعث الموتى بإحياء الأرض الميتة بذلك الماء بأمر الله – تعالى – " كذلك النشور "[1] وهو تشبيه تمثيلى لطيف عجيب يعجز عن مثله البشر إذ فيه تقدمت الهيئة المشبه بها على الهيئة المشبهة ، والأولى هى هيئة إحياء الأرض الميتة واهتزازها بالنبات بواسطة الماء النازل من السحاب المسوق إليهم بوساطة الرياح بقدرة الله – تعالى – وواضح أن فى هذا دافعا للإنسان إلى أن يقارن بين الحالتين : الأرض الميتة وهى من تراب وقد حييت بالماء ، وبين التراب الذى خلق الله منه آدم وهو من هذه الأرض الترابية فكما أن إحياء الأرض يتحقق بقدرة الله – تعالى – وهو شئ يشاهدونه كذلك إحياء الموتى الذين صاروا ترابا – يوم القيامة – يتم تحقيقه بقدرته –

---

(1) وهذا كالتعقيب فى آيات سورة (ق) " كذلك الخروج " أى البعث بعد تقديم المشبه به أو الدليل الكونى " ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ..... إلى قوله كذلك الخروج من ١ – ١٣ ق .

سبحانه وتعالى – فهما من جنس واحد ، وصدق الله العظيم : " منـــها خلقنـــاكم وفيـــها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى " [1] .

أما الاكتفاء بذكر النطفة – هنا – من بين أطوار خلـق الإنسـان فلأربعة فلأسباب – والله أعلم –

١- أن النطفة ماء فى مقابلة الماء النازل من السماء الذى حييت به الأرض الميتة وأنبتت مـن كل زوج بهيج .

٢- أن النطفة هى المرحلة الأولى فى خلق ذرية آدم وهى لصيقة بهم فهم يعرفونها جيدا .

٣- فى الانتقال من التراب إلى النطفة لفت نظر إلى قدرة الله – تعالى – إذ أن كلا منـــهما هو الطور الأول فى الحالتين : خلق آدم أبي البشر ، وخلق ذريته لكن التراب تحـــول إلى إنسان بقدرة الله لأسباب رتبها الله – تعالى – دون أسباب دخيلة ، والنطفة تحولـــت إلى إنسان بقدرة الله – تعالى فكأنه يقول لهم : من قدر على خلق آدم من التراب وهـــو لا حياة فيه فهو قادر على خلق ذريته من النطفة وهي من الإنسان الحى وفيها حيـــاة !! أو من خلق آدم من التراب وخلق ذريته من النطفة فهو قادر على إعادة هذه النشأة .

٤- وعلى هذا لا مانع أن يكون فى إعادة ذكر النطفة – هنا – تعريض وتهكـــم بغبائـــهم وجهلهم لإهمال عقولهم وعدم تفكيرهم للوصول بهذا الدليل الواضح إلى التصديق ببعث الله الموتى .

٥- أن الآية مكية وهم مازالوا حتى هذه اللحظة كما هم على عدم تقبلهم للدعوة وعـــدم إيمانهم بالبعث والقيامة ووحدانية الله – تعالى ..... وعلى عدم التفكير باستعمال العقـل فى شأن ذلك فخاطبهم بما يعرفون جيدا في مقام ذكر (ماء السماء) الذى يحـــيى الله بـــه الأرض الميتة فتهتز بالنبات كما يخلق من ماء النطفة إنسانا ، وأيضا فى مقابلة ماء البحـــر العذب الفرات السائغ شرابه ، وماء البحر المالح لبيعث على المقارنة أيضا بـــين الميـــاه الثلاثة ليظهر تميز ماء النطفة وخصوصيته وذلك كما فى آيات (الفرقـــان) : " ومـــا يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحمـــا

---

(١) ٥٥ طه .

طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضلـــه ولعلكـــم تشكرون " [1] * وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء مـــاء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا * ولقد صرفناه بينـــهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهـــذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا * وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعلـــه نسبا وصهرا وكان ربك قديرا " [2] .

٦- قد يكون الاكتفاء بذكر النطفة – هنا – اعتمادا – أيضا – على ذكر هذه الكونيـــات العظيمة كأدلة مصاحبة (الرياح والبحرين والفلك وإيلاج الليل فى وإيلاج النـــهار فى الليل وتسخير الشمس والقمر ...) " يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعـــون مـــن دونه ما يملكون من قطمير " [3] .

٧- لم يذكر مع هذين الطورين (التراب والنطفة) أطوارا أخرى أرقى أو أغمـــض لئـــلا يخاطبوا بما لايعرفون وما هو مخالف لمقتضى حالهم ، وبما فيه تكليف لهـــم بمـــا ليـــس فى وسعهم وصدق الله العظيم : " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها " [4] " لا يكلف الله نفســـا إلا ما آتاها . " [5] وسبحان من هذا كلامه !!!

---

(1) ١٢ فاطر .

(2) ٤٨ – ٥٤ الفرقان .

(3) من ٩ – ١٣ فاطر .

(4) ٢٨٦ سورة البقرة .

(5) ٧ سورة الطلاق .

والترتيب العاشر لآيات (خلق الإنسان) بعد آيات (فاطر) المسوقة كادلة على البعث هو لآيات سورة (الواقعة) " وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل إن الأولين الآخرين لمجموعون * إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين * نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون " [1].

الآيات فى مواجهة أصحاب الشمال الذين " كانوا يصرون على الحنث [2] العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * " وقد جاء دليل خلق الإنسان " ما تنمون " على رأس أربعة أدلة كونية للرد على هؤلاء فى أسلوب قياسى استفهامى يستنطقهم " أفرأيتم ما تمنون * " ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * ؟ . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * ؟ . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم * [3] .

---

(1) ٤١ – ٦٢ سورة الطلاق .

(2) هو الحلف كذبا على أن البعث لن يكون .

(3) ٤١ – ٧٤ الواقعة .

وكان من محكم النظم وبلاغته فى هذه الأدلة أن جاءت فى ترتيبها هذا ، وكان دليل " ما تمنون " على رأسها ؛ لأنه أصل الإنسان المتنازع على بعثه بعد موته ، وبدأت الآيات بإسناد خلقهم إلى الله – تعالى – وحده بطريق القصر بالتقديم " نحن خلقناكم " وفيه توكيد فوق توكيد على أن الله هو الخالق لهم وحده لأن أسلوب القصر يتضمن معنيين أو جملتين الأولى تفيد إثبات أن خلقهم لله وحده لا شريك له ودون تردد ، والثانية تفيد نفى خلقهم عن غير الله – سبحانه – ... وهذا البدء " نحن خلقناكم " فيه بلاغة استهلال ؛ لأنه خاطبهم – فى مبدأ الرد عليهم – بالجواب الشافى عن إنكارهم بعث الموتى الذى جادلوا فيه كثيرا ، وما زالوا ينكرون وهذا البدء كان كافيا لهم أن يؤمنوا ؛ لأنهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم – كما أخبر القرآن الكريم : " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " [1] ولهذا – أيضا – لم يقل لهم القرآن : أفرأيتم ما تمنون . نحن خلقناكم منه ؛ لاعترافهم وإقرارهم بذلك ، بل قال : " أفرأيتم ما تمنون . نحن خلقناكم فلولا تصدقون . " ولهذا قال لهم أيضا – " ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون "ولهذا حضتهم الآيات علي التصديق " فلولا تصدقون " !!

وإزاء هذه الأفكار انتقلت الآيات إلى تقديم دليل بعثهم يوم القيامة مدرجة مع عقولهم - أيضا - من البداية بذكر الطور الأول – أيضا – ولكن بالتعبير بوصف آخر " ما تمنون "فى أسلوب استفهامى إقرارى يستنطقهم " أفرأيتم ما تمنون " ؟ إذ أن فى هذا الوصف حثا لهم أكثر على التفكير ؛ لأن فيه تذكيرا لهم بهذا الحدث (الإمناء) أى صب هذا السائل بطريقة خاصة – مكنها الله من الإنسان والحيوان – فى مكان خاص ففى ذلك استحضار لهذا الحدث بين أيديهم وتصوير له فهو يخاطبهم بالصفة التى يحسون بها عند اللقاء فلعلهم يفيقون ويفكرون ويثوبون ، وبهذا عبر عن (النطفة) وهى اسم هذا السائل بالموصول وصلته بالفعل المضارع " ما تمنون " من أجل هذا الاستحضار والتصوير ، وأكد ذلك وساعد عليه بذكر الرؤية " أفرأيتم " بالاستفهام التقريرى الاقرارى ، وفى ذلك - أيضا تدرجّ معهم من مجرد الاسم - فيما سبق - إلى وصفه الدال على الحدث المشعر بالنشاط والانفعال ،

---

(1) ٨٧ الزخرف .

وفى ذلك استحثاث شديد لهم ، وذلك لبلاغة مجيه بأسلوب إنشائى إقرارى لتحريك أذهانهم وتفكيرهم وهو – هنا – أبلغ من الإخبار لو قال – مثلا – حاشا لله – تعالى – (نحن خلقناكم مما تمنون) أو (نحن خلقناكم من النطفة) ففيه بلاغة الاستفهام التقريرى الإقرارى وبلاغة الاستحضار والتصوير كما قلنا ، لزيادة التأثير فيهم .

والخلاصة أن " ما تمنون " دليل محس جدا يمارسون وسيلته ولا سبيل لهم إلى إنكار هذا الدليل أبدا فهم يعلمون جيدا أن نشأتهم الأولى مبدؤها ما يمنون ؛ ولذا يقول الله لهم : " ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * " !! وزاد فى بلاغة هذا الدليل – أيضا – والإقناع به – توافق فاصلته مع الفواصل الأخرى فى تبعيتها للمعنى مما أضفى على الكلام رونقا وبهاءً وجرسا مصلصلا يوقظهم من غفلتهم ويأخذهم من مجامع قلوبهم .

وإذا كان قد خاطبهم بهذه الصفة مصاحبة لموصوفها فى سورة (القيامة) " ألم يك نطفة من منى يمنى " – التى ترتيبها فى النزول الواحد والثلاثون ؛ فقد جاء – هنا – وذكرهم بهذا الوصف فى الواقعة التى ترتيبها فى النزول السادس والأربعون : " أفرأيتم ما تمنون ... " فذلك لسببين :

أولا ، لقرع آذانهم مرة بعد مرة لتنبههم وتذكيرهم بما يحسون جيدا ويعترفون بأنّ منه نشأتهم الأولى ومن قدر على الأولى قدر على الثانية والإعادة أهون عليه - سبحانه - .

ثانيا ، لأن القيامة نزلت ترد على أعنف جدال وأشد إنكار وتحد من عدى بن ربيعة الذى أنكر البعث والقيامة ، وفتت عظما قد رم وبلى فى مواجهة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقال له : لو عاينت ذلك اليوم لم أومن يا محمد [1] ، وكذلك الحال – هنا – فى الواقعة نزلت فى حق من يشبهون عديا وقد حلفوا مثله أيمانا حانثة على أن البعث لن يكون فالموقفان متشابهان فجاء الرد على كل منهما مطابقا لمقتضى حاله من شدة الإنكار وشدة الجدال ، مثيرا فيهم مذكرا لهم بهذا الحال . حال اللقاء الذى يحسونه جيداً ولا يستطيع أحد إنكاره ، وكأنهم لا يفهمون معنى النطفة التى خوطبوا بها كثيرا ، وفى ذلك استغباء لهم وتهكم بهم وتعريض بجهلهم .

---

(1) راجع ص ٩٢ .

ومِـمَّا زاد من قيمة هذا التدرج – هنا –أنه – تعالى – ذكرهم بمن خلق " ما يمنون" ." أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون " ؟ وذلك لينتزع منهم الاعـــتراف بـــأن مَـــنْ خلقهم الذى يعترفون بأنه هو الذى خلقهم من هذا الذى يمنون ويحسون به هـــو قـــادر على خلقهم من جديد يوم القيامة " ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " [1] ولئـــن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " ومما يزيد فى بلاغة هذه الأدلة أنه ناســـب أن يلى الدليل الأول " ما تـــمنون " دليلُ (الحرث والزرع) " أفرأيتم ما تحرثـــون ؟ " أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ... * ؟ "وذلك لوجود الشبه بينه وبين (خلق الإنسان) ففى كل منهما حرث وبذر " نساؤكم حرث لكم " وناسب أن يثلث بالماء ؛ لأنه مـــن لوازم الإنسان والزرع ، ولأنه غير ماء الإنسان فتسهل المقارنة بينهما فتكون العبرة أبلغ ، " أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنـــزلون * " لو نشـــاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * " !!

كما ناسب أن يلى دليل الماء الذى يشربونه نعمة النار " أفرأيتم النـــار الـــتى تورقون ؟ . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ * نحن جعلناهـــا تذكـــرة ومتاعـــا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم * " وذلك لأن الماء كما هو وسيلة إنمـــاء الـــزرع والإنسان والأحياء الأخرى فهو وسيلة إطفاء النار المحرقة ؛ ولأنهم يشعلونها للانتفاع بهـا فى مثل شجرة كانت خضراء وكم سقيت بالماء لتنمو !!

وتتضافر بلاغة هذه الأدلة مع الدليل الأول أو الطور الأول فى خلق ذرية آدم " ما تمنون " ؛ لتأكيد البعث وحصوله يوم القيامة ؛ لأن الجميع مخلوق لله - تعالى - .

وهكذا تبلغ البلاغة المعجزة بنظم الكلام المحكم كلام الله العزيز وسبحان مـــن هذا كلامه !!! . وسبحان عالم الأسرار !!!

* * *

والترتيب الحادى عشر لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة (الحجر) ، " وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون * ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد

---

(١) ٦٨ الزمر .

علمنا المستأخرين * وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم * ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حما مسنون * والجان خلقناه من قبل نار السموم ..... " .

هذه الآيات نزلت في جملة آيات كونية عظيمة أخرى ترد على المكذبين جميعا بالرسالات السماوية حتى قال من دعاهم محمد : " يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * " [1] حتى قال الله فيهم " ولو فتحنا عليهم من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون [2] . فهذا تصريح بالعناد و التكذيب العنيف إلى درجة أنهم لو أدخلهم الله السماء وظلوا يترقون فيها لكذبوا وقالوا إن أبصارنا مسكرة (مغلقة) ، بل إن هذا سحر لنا ، فاستدعى ذلك أن يكون الرد عليهم قويا فوجه الله - تعالى - أبصارهم إلى الكون الفسيح من حولهم وهم يعترفون أنه مخلوق لله - تعالى - فحدثهم عن السماء وما جعل الله فيها من بروج وعن تزيينها للناظرين بالكواكب والنجوم وحفظها من كل شيطان رجيم .

" ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين * " [3] ثم عن الأرض الممتدة الواسعة والتى جعلها - سبحانه - متزنة بالجبال الرواسى ، وأنه أنبت فيها من كل شئ موزون ، وجعلها لهم مهادا يستطيعون العيش فوقها بسهولة " والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شئ موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم * " [4] ثم حدثهم عن إرسال الرياح اللواقح للسحب لإنزال الماء من السماء بقدر معلوم لسقياهم وتخزينه لهم في باطن الأرض دون أن يستطيعوا هم تخزينه .

---

(1) سورة الحجر .

(2) 1 - 15 الحجر .

(3) 16 - 18 .

(4) 19 - 21 .

"وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين * " [1] وصدق الله . " وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهـــاب بـــه لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فـــواكه كثـــيرة ومنـــها تأكلون * " [2] . ثم دخلت الآيات فى الدليل الرابع وهو (خلق الإنسان) خلقا عجيبـــا " وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون * ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقـــد علمنـــا المستأخرين * وإن ربك هم يحشرهم إنه حكيم عليم * ولقد خلقنا الإنسان من صلصـــال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * "

وواضح أن التقديم بتلك الآيات الكونية على آيات (خلق الإنســـان) فيه تدرج مع عقولهم من خلق الأكبر وهو تلك الكونيات إلى خلق الأصـــغر (خلق الإنسان) ؛ لأن من خلق ذلك قادر على خلق هذا " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن كثر الناس لا يعلمون " [3] وذلك ؛ ليقتنعوا ويؤمنوا وبخاصة أنهم لا يجادلون فى أن الله هو خالقهم وخالق الســـموات والأرض والشـــمس والقمـــر ومنـــزل الماء من السماء . [4] والملاحظ أن آيات خلق الإنسان هذه أول آيات تذكـــر هذه المرحلة بلفظ " صلصال من حمأ مسنون " أى الطين المنتن اليابس الأملـــس " [5] . وقد ذكر هنا – ثلاث مرات – أولا فى هذه الآية ثم فى قوله – تعالى – بعدهـــا : " وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * " ثم فى قوله – تعالى – : " بعد ذلك عن إبليس : قـال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون " [6] ولعل ذلك لتشديد التنبـــيه على إبليس والملائكة بأنه – سبحانه – سيخلق خلقا آخر غيرهما لعبادته ومن مادة غـــير

---

(1) ٢٢ .

(2) ١٨ – ١٩ المؤمنون .

(3) ٥٧ غافر .

(4) انظر آيات اعترافاتهم ص ١٢١ .

(5) المسنون هو الأملس ومنه قول الشاعر : ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشى فى مرمر مســـنون (٢٥٥ جـ ٢ تفسير ابن كثير) .

(6) ٢٨ – ٣٣ .

مادتيهما بل من مادة أدنى من ماديتهما ، ولكنه – تعالى – : رفع شأنه بالنفخ فيه من روحه – سبحانه – لهدايته " ونفخ فيه من روحه " إلى جانب أن ذلك للتأكيد مباشرة على إظهار قدرة الله – تعالى – الذى خلق الإنسان الكامل العاقل السميع البصير من هذا الطين الحقير ذى الأوصاف المنفرة فهم يعرفونه جيدا فهو يرد عليهم فى تعجبهم : " أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * ؟ " ولهذا لما ذكره بعد ذلك لأهل مكة ذكره بلفظ الطين دون إعادة تعريفه بهذا التعريف فيما نزل بعد ذلك من آيات خلق الإنسان كآيات (الأنعام) و (الصافات) و (المؤمنون) و (السجدة) و (الرحمن) غير أنه فى الأخيرة – وهى مدنيه – ذكره بلفظ " صلصال كالفخار " وذلك لسر بلاغى سيأتى بيانه [1] وغير أنه فى سورة (الصافات) ذكرهم بالوصف (يابس) " ... من طين لازب " لما فى اللزوبة (اليبوسة) من العظة والاعتبار حيث دبت فيه – على الرغم من يبوسته – الحياة والروح والحركة ، ولهذا ذكره فى هذه السور بلفظ (الطين) فحسب ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أنه يكفى بدون وصف – فى العظة والاعتبار والتدليل على قدرة الله – تعالى – وعلى صحة الرسالات السماوية وعلى إمكان البعث إذْ يكفى أن يكون خلقه من الطين مطلقا مهما كانت صفاته أى سواء كانت صفاته تلك أو صفات طين الأرض التى يعيشون فوقها ، حيث يختلط بماء السماء فهو يخاطبهم بما يعرفون جيدا ويقع تحت حواسهم وكأنه يقول لهم : هل يستطيع أحد غير الله أن يخلق من هذه المادة الواقعة تحت أعينكم وأرجلكم إنساناً سويا فهو خطاب لهم على مقتضى حالهم ، ليبلغ عقولهم وقلوبهم ويؤثر فى نفوسهم وبخاصة أنهم لا يجادلون فى خلق الله للأرض التى فيها هذا الطين " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " [2] .

وواضح أن ذكر خلق الإنسان من هذا الصلصال وجعله خليفة فى الأرض : وذكر خلق الجان من " نار السموم " فى ذلك إظهار أكثر لقدرة الله – تَعَالَى – كما فى ذلك مقارنة بين الخلقين ؛ إذ أن الإنسان خلق من هذا الطين بأوصافه هذه من الصلصلة

---

(1) أنظر ص ١٤٨.

(2) ٦١ العنكبوت .

والنتن واليبوسة والملاسة ، وخلق الجان من نار السموم غير أن الهداية اكتنفت الإنسان لأن الله – تعالى – نفخ فيه من روحه " فدخله عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الشيطان فبقيت من السموم " [1] ؛ ولهذا أبى أبليس وتكبر أن يسجد لبشر خلقه من الطين : " قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون " [2] .

* * *

ومن بلاغة الإعادة لحكمة إلهيّة وأسرار بلاغية إعجازية فى أطوار خلق الإنسان لقصد التأكيد والتأثير فى النفس والقلب والعقل أنه بعد آيات سورة الحجر ذكر سبحانه نفس المرحلة وإن كان بلفظ " الطين " فحسب فى سورتين متتاليتين هما الأنعام ثم الصافات فترتيبهما الثانى عشر والثالث عشر بعد الحجر فى آيات خلق الإنسان يقول الله تعالى – فى أول (الأنعام) " الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون * هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ... * " [3] .

هذه هى المرة الأولى التى يذكر فيها طور (الطين) بهذا اللفظ فى خلق الإنسان ، وليس هذا تكرارا للتسمية السابقة " صلصال من حمأ مسنون " فى سورة الحجر لأن هذا الأخير ذكر بأوصافه من الصلصة والنتن واليبوسة والملاسة فى مجال إظهار قدرة الله بالمقارنة بين خلقه – سبحانه – الإنسان من ذاك الطين المقزز ، وخلق الجان من " نار السموم " ولهذا أبى أبليس أن يسجد حين طلب الله ذلك منه " قال انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * " [4] " قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * " .

أما هنا فى (الأنعام) فقد ذكر بلفظ (الطين) – وهى التسمية الأصلية – فى مقام الأمتنان بنعم الله – تعالى – ومقام عتاب ذرية من أنعم الله عليهم بالنفخ من روحه

---

(1) ٢١٣٧ جـ ٤ فى ظلال القرآن .

(2) ٣٢ الحجر .

(3) ١ ، ٢ الأنعام .

(4) ٧٦ سورة ص .

لهدايته " الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم بعد لون * هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا مسمى عنده ثم أنتم تمترون * وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون " (١) .

والآيات فى مقام الامتنان بنعم الله – تعالى – على عبادة وإظهار قدرته مطلقا وعلى البعث إذ يقول – تعالى – فى السورة نفسها " وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين " (٢) ، وقد افتتحت السورة بهذا الحمد وهذا اللوم على الذين عدلوا عن عبادته – سبحانه – على الرغم من هذه النعم . ثم ذكر ما يستوجب هذا الثناء ويظهر قدرته – سبحانه – وهو خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان من طين وكما هو ديدن بلاغة القرآن فى ذكر المخلوق الأعظم أولا ثم ذكر الأصغر للتدليل مسبقا على أن من قدر على خلق الأعظم فهو قادر على خلق الأصغر بل قادر على اعادته وهى أهون عليه " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٣) " وذلك ؛ ليقتنعوا ويذعنوا ويؤمنوا وبخاصة أنهم لا يجادلون فى خلق السموات والأرض ، ولا فى خلقهم هم مصداقا لقول الله تعالى " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " (٤) " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " وذلك قياس منطقى أولى لا ينكره أحد .

أما ذكر طور الطين "هنا" بهذا اللفظ بعد ذكره فى الحجر باسم أو وصف " صلصال من حمأ مسنون (٥) أولا . لأن الغرض هو إثبات قدرة الله – تعالى – على خلق الإنسان من هذا العنصر مهما كانت صفاته سواء على الأصل أو اكتسب صفات أخرى .

---

(١) ١ – ٣ الأنعام .

(٢) ٢٩ الأنعام .

(٣) ٥٧ غافر .

(٤) ٦١ العنكبوت .

(٥) ٨٨ الإسراء .

ثانيا . لقرع أسماع الجاحدين الذين عدلوا عن عبادة الله تعالى وتفتيح قلوبهم وعقولهم إلى الإيمان ؛ إذ كيف يكون من هذا الطين مهما كانت صفاته إنسان عاقل ذو روح وحياة ؟ لا يفعل ذلك إلا إله قادر على كل شئ .

ثالثا . أن الطين شئ مبتذل يرونه فى كل مكان وهو جماد مهين لا يؤبه له وقد يداس بالأقدام ومع ذلك فقد خلق الله منه الإنسان ودبت فيه الحياة والروح والحركة فلعلهم بعد ذلك يذعنون ويؤمنون فخاطبهم به وفق مقتضى حالهم من المعرفة وذكره بصفاته الصريحة فى الحجر وبلفظه الأصلى فى الأنعام والصافات – وهى سور متتابعة – فى النزول فيه زيادة قرع لأسماعهم وزيادة إظهار لقدرة الله - تعالى - وصدق من قال :

..... ومد من القرع للأبواب أن يلجا

وصدق الله العظيم " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا " [1] .

* * *

والترتيب الثالث عشر لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة (الصافات) " ... فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب * بل عجبت ويسخرون * وإذا ذكر والا يذكرون * وإذا رأوا آية يستسخرون * وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ * أو آباؤنا الأولون ؟ * قل نعم وأنتم داخرون * فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون * [2] .

تأتى هذه الآيات بعد أن يقسم الله – تعالى – بالصافات صفا والزاجرات زجرا ، والتاليات ذكرا ... على أنه – تعالى – واحد وأنه رب السموات والأرض ، وأنه تعالى هو الذى زين السماء الدنيا بزينة هى الكواكب ، وأنه حفظها من الشياطين التى كانت تسترق السمع [3] وجاء معنيا الآيتين الكريمتين : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " " ولئن سألتهم من

---

(1) ٨٨ الإسراء .

(2) ١١ – ١٩ الصافات .

(3) ١ – ١٠ الصافات .

خلقهم ليقولن الله ... " جاء هذان المعنيان – هنا – فى صورة استفهام تقريرى إقرارى " فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟ " ومن النظم المعجز للقرآن أن يقدم – هنا – أيضا – الدليل الأكبر على قدرة الله – تعالى – وهو خلق السموات والأرض ... " فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ... للاستدلال بالعالم الأكبر قبل الاستدلال بالعالم الأصغر (خلق الإنسان) " إنا خلقناهم من طين لازب * " وفى ذلك براعة الاستدلال وبلاغة الأولوية ، وأخذ الخصم من لسانه والاحتجاج عليه بما يقر به من أن خلق السموات والأرض وخلقهم إنما هو لله ، وإذا كانوا يعترفون بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض وأنها له سبحانه ، وأنه بيده ملكوت كل شئ [1] وأنه – سبحانه هو الذى خلقهم – أيضا ويرون بأعينهم أن خلق السموات والأرض الذى يعترفون بأنه لله يرونه أكبر وأشد من خلقهم هم – كما يقول الله – تعالى – " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ... " إذا كان ذلك كذلك فسيجدون أنفسهم فى حيرة وارتباك يقرون بعدهما بأن الله قادر على إعادة خلقهم بعد موتهم وستبطل سخريتهم بأن هذا سحر مبين كما سيبطل سؤالهم التعجبى : " أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ " وذلك إذا كان الله هو الذى قد خلق تلك الكائنات باعترافهم وهى أكبر – فبالأولى أن يخلق الأصغر ويبعثه من جديد وهو الإنسان وتأتى إجابة الله – تعالى – " قل نعم وأنتم داخرون . فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون " [2] .

وطور (خلق الإنسان) هنا " ... إنا خلقناهم من طين لازب " صرح معه بوصف اللزوبة (اليبوسة) وهو أحد الأوصاف التى يعرفونها جيدا وذلك لما فى اللزوبة من العظة والاعتبار إذ يدل ذلك على القدرة المطلقة لله – سبحانه – إذ يخلق من هذا

---

(1) يقول – تعالى – " قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ " سيقولون الله قل أفلا تتقون ؟ * قل بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون " ؟ " سيقولون لله قل فأنى تسحرون * ؟ . (٨٤ – ٨٩ المؤمنون) .

(2) ١٨ ، ١٩ الصافات .

الطين الجماد الجاف إنسانا متحركا عاقلا مبصرا سميعا وهو وإن كـــان طينـــا وســـبق الاستشهاد به إلا أن ذلك لقرع أسماعهم مرة بعد مرة لتفتيح عقولهم والتأثير فى نفوسـهم حتى يذعنوا فيؤمنوا فوصف اللزوبة – هنـــا – وصـف مقصـود تـدرج بـه معـهم بجانب استفتائهم أيهما أشد خلقا ؟ السموات والأرض وما فيهما اللاتى يعترفون بأن الله هو الذى خلقهن ؟ أم خلقهم هم من هذا الطين وهم يعترفون – أيضا بـــأن الله هو الذى خلقهم كذلك وهكذا نجد أن سورة الصافات قد أخذت على المنكر والمجـادل كل طريق حتى يجد نفسه معترفا مقرا بالحق ، كما اشتملت على مخاطبة العقل والعاطفـة معا ، وعلى القسم المتنوع فى مواجهة المنكرين ؛ لتحريك عاطفتهم الدينية . وســـبحان من هذا كلامه !!

* * *

والترتيب الرابع عشر لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة (غافر) ، " هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفـــلا ، ثم لتبلغـوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ؛ ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكـم تعقلون " [1] .

هذه الآيات – أيضا – فى مواجهة المجادلين فى الله وفى آياتـــه بغـير ســلطان والمنكرين للبعث وليوم القيامة ولوحدانية الله – تعالى – ونلاحظ أن آية خلق الإنســان قد ذكرت من هذه الأطوار ثلاثة فحسب (التراب) و هو فى خلق آدم أبى البـــشر و (النطفة) و (العلقة) فى خلق ذريته ، وهذه الثلاثة ذكرت فيما سبق فهل هذه الإعادة بلا فائدة ؟ حاشا لله – تعالى – وجل شأنه !! لأنهم ما زالوا " يجادلون فى الله وآياته بغير سلطان أتاهم إن فى صدروهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله ، إنه هـــو الســـميع البصير " [2] ولذلك لم تذكر الآيات الأطوار الأخرى من المضغة والعظام وكسوتها ونفخ الروح ... ، لأنها أطوار غريبة عنهم وهم ما زالوا لا يفهمونها ولا يصدقونها إذا خوطبـوا بها ما داموا كافرين مجادلين بالباطل ، وخطابهم بتلك الأطوار الأرقى يخـــالف مقتضـــى

---

(1) الآية ٦٧ .

(2) ٥٦ غافر .

حالهم ، ولكن الآيات استعاضت عن هذه الأطوار الغيبية بايات أو أدلة تحت حواسهم لا يستطيعون إنكارها وهى تساند وتعضد هذه الأطوار الثلاثة فى خلق الإنسان وهى نوعان فيكون المجموع ثلاثة أنواع من الأدلة :

أولها . يتصل بالكون من حولهم ، *وثانيهما* يتصل بهم هم ولها صلة قوية بهذه الأطوار الثلاثة وسنفصل هذه الأدلة .

أما الأولى فهى خارجه عن خلقتهم لأنها أدلة كونية محيطة بهم وهى تدل دلالة قاطعة على قدرة الله – تعالى – فى الكون [1] وفى خلقهم من عدم ، وفى بعثهم يوم القيامة وقد استهلت هذه الآيات الكونية ببيان أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون *" ، وثنت الآيات بجعل الله الليل سكنا والنهار مبصرا لسعيهم على رزقهم ، وثلثت بأنه – تعالى – خالق كل شئ ، ثم بأنه – تعالى – جعل الأرض قرارا للناس يعيشون فوقها ويسعون على رزقهم فيها ويستقرون بعد موتهم فى بطنها " منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى " [2] ثم بأنه جعل السماء فوقهم كالبناء المتماسك ، وفى نفس الآية إشارة إلى ما يتصل بخلق الإنسان الآتى بعد وهو تصويرهم فى أحسن صور وهى مرئية فى صورهم وصور أولادهم قال تعالى : " الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين " [3] وهم يعترفون بأن الله سبحانه هو خالقهم وخالق هذه الكونيات من السموات والأرض ومالك التصرف فيها وأنه هو الذى ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر ... " قال تعالى : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " [4] " ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها

---

(1) من ٥٦ – ٦٦ غافر .

(2) ٥٥ طه .

(3) ٦٤ غافر .

(4) ٦١ العنكبوت .

ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون * "[1] " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون * "[2] " قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ * سيقولون لله قل افلا تذكرون ؟ * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ * سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ * قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ؟ *[3] الذوع الثانى من الأدلة هو أطوار خلق الإنسان التى ذكرت فى الآيات وهى (التراب) و (النطفة) و (العلقة) وذكر التراب هنا له مناسبته القوية وهى الحديث آنفا عن الأرض التى هى مصدر التراب قال – تعالى – " الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ... " كما أن فيه تذكيرا بالطين الذى هو من التراب والذى ذكر فيما سبق (فى الحجر) و (الأنعام) و (الصافات) وهو خطاب لهم على مقتضى حالهم حيث يعرفونه جيدا ، أو خطاب لهم بما هو تحت أقدامهم للتأثير فيهم بطريق أسرع وأيسر ، أما ذكر النطفة والعلقة ؛ فلأن النطفة أعرف إليهم من أى طور آخر ؛ إذ يحسون بها إحساسا قويا فى أنفسهم ويعتقدون اعتقادا راسخا أنها سبب إنجابهم وإنجاب أولادهم الذين تنطبق عليهم هذه المراحل التى ذكرتها الآية بعد ولادتهم من الطفولة وبلوغ الأشد والشيخوخة والوفاة وأما (العلقة) فقد عرفتهم أول سورة نزلت من القرآن الكريم بأنها تشبه تلك الدودة التى توجد فى الماء الذى تشربه دوابهم وتعلق بحلوقها وهم يعالجون إخراجها قال – تعالى – " خلق الإنسان من علق " وقد أعيد الحديث عنها بعد ذلك فى سورة القيامة ثم بعد ذلك ولهذا اكتفت الآية بذلك ولم تستدل بأطوار أرقى فى (خلق الإنسان) فى تلك الفترة ؛ لأنهم لو خوطبوا بها ما فهموها ولكان ذلك – كما قلت خروجا عن البلاغة فضلا عن البلاغة القرآنية وحاشا لله – تعالى .

النوع الثالث من الأدلة على قدرة الله – تعالى – وعلى البعث أدلة لها صلتها القوية بأطوار خلق الإنسان وهم يشاهدونها بداية من نزول الجنين من بطن أمه وهى

([1]) ٦٣ العنكبوت .

([2]) ٨٧ الزخرف .

([3]) ٨٤ – ٨٩ المؤمنون .

تتمثل فى إخراج أجنتهم أطفالا يستقبلونهم بفرح وسرور ويعلمون حق العلم أن هـؤلاء الأطفال من النطفة التى حدثهم القرآن عنها كثيرا ، وأن أصل جدهم الأول أدم عليـه السلام من هذا التراب – ثم بلوغ هؤلاء الأطفال سن الأشد وهى سن النضج والرجولة الكاملة أو الأنوثة الكاملة ، والعقل الرشيد وهو بلوغ أربعين سنة ، وقبله بالطبع سـن الشباب والقوة والطموح ، ولعله طوى لأنه سن الغرور وصعوبة الانصيـاع للحـق ؛ ولهذا نفذت الآية من الطفولة إلى سن التعقل (بلوغ الرشد) مباشـرة فلعـل هـؤلاء يفكرون بفكر ثاقب يؤدى إلى وصولهم إلى الحق . ثم ثلث بجعلهم شـيوخا ثم ذكـر أن منهم من يتوفى من قبل ، وكل هذه مراحل مشاهدة لهم وهـى مـن صـنع الله - تعالى - ولا يستطيعون إنكارها أو التشكك فيها باى حـال مـن الأحوال ؛ لهذا فهى أدلة قوية تساند أطوار خلق الإنسان التى لها صلة قوية بالبعث ؛ ولهـذا ختـم هذه الأطوار المراحل كلها بقوله – تعالى – : " لعلكم تعقلون " [1] .

ثم كان حسن الختام بما فيه توكيد على المقصود لصلته القوية بـأطوار خلـق الإنسان وبالبعث وبمراحله فى حياته الدنيا بعد مولده ، وما هو بمثابة تعميم لقـدرة الله – تعالى – فى الإحياء والإماتة واختصاصه – تعالى – بذلك بعد تقديم هذه الأدلة اليقينيـة وما هو بمثابة تلخيص لما تقدم ألا وهو قوله - تعالى - " هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون " [2] بأسلوب قصـر التقـديم للاختصاص " هو الذى يحيى ويميت " فلا إحياء أو إماتة إلا بقدرته تعالى هو وحـده لا شريك له . وقصارى القول أن إعادة ذكر الأطوار الثلاثة فى هـذه الآيـة واكتفاءهـا بذكرها وعدم ذكر أطوار أعلى مناسب لحالهم ؛ إذ ما زالوا على حالهم مـن الإنكـار والجدال وهكذا حتى ذلك الوقت يتدرج مع عقولهم فيعيد لهم – سبحانه – الأدلة كـل فترة من الزمن لحكمة مناسبة فيخاطبهم على قدر عقولهم بما يعرفون من أدلـة كونيـة تحيط بهم وبما يعرفون من أطوار خلق الإنسان التى يعرفونها جيدا ، وذلك لقرع أسماعـهم

---

(1) ٦٧ غافر .

(2) الآية ٦٨ .

مرة بعد مرة للتأثير فى نفوسهم ثم الوصول فى النهاية إلى إذعانهم وإيمانهم . وسبحان من هذا كلامه !! جل شأن الله .

* * *

والترتيب الخامس عشر لآيات خلق الإنسان ، هو لآيات سورة الكهف : " واضرب لهم – مثلا – رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا * وكان له ثمر فقال لصاحبه – وهو يحاوره – أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا * ودخل جنته – وهو ظالم لنفسه – قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا * قال له صاحبه – وهو يحاوره – أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ثم سواك رجلا * ؟ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا * ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إن ترنى أنا أقل منك مالا وولدا * فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا * وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها و هى خاوية على عروشها ويقول : ياليتنى لم أشرك بربى أحدا * ولم تكن له فئه ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخيرا عُقْبا * "[1] .

هى قصة الأخوين الاسرائيلين اللذين كان أحدهما مؤمنا وقد أنفق ماله فى سبيل الله ، وكان الثانى كافرا وقد امتلك حديقتين غناءتين فيهما كثير من أشجار فاكهة العنب وهما محفوفتان بأشجار النخيل ويجرى فيهما الماء المتفجر من أنهارهما ، وقد آتت هاتان الجنتان ثمارهما ولم تنقص منه شيئا ، وقد عَيَّر أخاه المؤمن بأنه أكثر منه مالا وأعز ولدا حتى قال له : – كما يقص القرآن – " وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا " كفر بالقيامة وبالبعث فيها للحساب وطمع أن تكون له فى الآخرة – لو كان هناك آخرة فى ظنه - خير من هاتين الجنتين لأنه يظن أن سعيد الدنيا ،

---

(1) ٣٢ – ٤٤ سورة الكهف .

فقال له أخوه المؤمن : " أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ثم سواك رجلا *؟ لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا ... " .

وآية (خلق الإنسان) هنا اكتفت بذكر ثلاث مراحل فى خلق الإنسان هى ما صرح بها الأخ المؤمن : (التراب) وهو فى خلق أبى البشر أدم – عليه السلام – و (النطفة) فى خلق ذريته ثم (التسوية رجلا) ؛ ذلك لأن المؤمن أراد أن يستدل للكافر بما لا يستطيع أن ينكره وهو (التراب) الذى يراه فى أرض جنّتيه وفى الطرق التى يسير عليها ، ثم ما يحس به وما يلازمه فى نفسه وهو (النطفة) ، ثم بما هو عليه الآن وهو تسويته رجلا كاملا عاقلا سميعا مبصرا ، فالخطاب له بما يتناسب مع مقتضى حاله وما هو كاف – عادة – عند الأسوياء من البشر – فى الإقناع ، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل هنا – وفى آيات (خلق الإنسان) الأخرى على أن النطفة وحدها تكفى للتدليل على إمكان البعث لأن جميع البشر يعرفونها جيدا ، ولكن الناس عن آيات ربهم لغافلون ، ولذلك لم تخل آية من آيات ذرية آدم فى القرآن الكريم – عدا أول آية نزلت من القرآن الكريم وعدا آية الانفطار آخر آية مكية تتحدث فى خلق الإنسان – عن ذكر النطفة . وسبحان عالم الأسرار !!

أما ذكر التسوية فلأن التسوية – أيضا معروفة لكل الناس ولكل المنكرين والمجادلين فى كل صقع وعصر ، إذ هى الانتقال مِنْ حالة السيولة والرخاء فى النطفة والمضغة إلى حالة النضج والتماسك ويكون ذلك فى الجنين الذى يصير إنسانا كاملا عاقلا سامعا مبصرا فهو خطاب للكافر بما يوافق مقتضى حاله من المعرفة الجيدة للتأثير فيه واستمالته إلى الإيمان . وسبحان عالم السر وأخفى .

* * *

والترتيب السادس عشر لآيات خلق الإنسان ، هو لآيات سورة النحل : " أتى أمر الله فلا تستعجلوه * سبحانه وتعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ... * " .

وآية (خلق الإنسان) هنا نزلت ضمن جملة أدلة كونية لإثبات قدرة الله – تعالى – على كل شئ ووحدانيته – وعلى البعث وعلى ثبوت القيامة " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وللرد على من يشركون بالله المنكرين للوحدانية .

ومن حسن نظم (آية خلق الإنسان) وبيان قوة الاستدلال بها أن كانت فى الترتيب الثانى بعد آية (خلق السموات والأرض وقبل آيات كونية عديدة سِيقَتْ للاستدلال لها هى خلق السموات والأرض بالحق ، وخلق الإنسان من نطفة وخلق الأنعام لنفع الإنسان ، وفيها جمال ، وخلق الخيل والبغال والحمير لركوبها وزينة وإنزال الماء من السماء ... لسقيانا ولإنبات النباتات المتعددة المتنوعة وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لنفع هذا الإنسان الجاحد ، وزرأ فى الأرض من " الأمور العجيبة من حيوانات ونباتات ومعادن وجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وخواصها ومنافعها " [1] ثم تسخير البحر لنفع الإنسان فى كثير من شئون حياته وإلقاء الرواسى (الجبال) فى الأرض لحفظ توازنها وخلق الأنهار والسبل ... ثم علامات فى الأرض والسماء للاهتداء بها كالجبال والأنهار والنجوم ثم أخيرا " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * " [2] .

البدء فى هذه الأدلة بدليل (خلق السموات والأرض) ؛ لأنها أعظم المخلوقات : " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [3] ثم إيلاء هذا الدليل بدليل (خلق الإنسان) دليل على أن (خلق الإنسان) دليل من الأدلة الكبرى التى يستدل بها ويحتج بها فى الأمور العظام وهو كذلك ؛ إذ جاء للاحتجاج على الإنسان كيف يخلقه الله هذه الخلقة العظيمة التى فيها تكريم له من هذا الماء المهين ثم يكون خصما لله – جل وعلا " خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * " !! " فيالها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير بين النطفة الساذجة والإنسان

---

(1) ٢١ جـ ٧ صفوة التفاسير للصابونى .

(2) ١ – ٢٠ سورة النحل .

(3) ٥٧ غافر .

المخاصم المجادل الذى يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل فى وجوده أو فى وجدانيته وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهله فهذا يصورد التعبير " خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * " ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ؛ لتبدو المفارقة كاملة والنقلة بعيدة ؛ ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين : مشهد النطفة المهينة الساذجة ومشهد الإنسان الخصيم المبين وهو إيجاز مقصود فى التصوير " [1] .

واكتفاء الآية بذكر النطفة دون ذكر أطوار أخرى دليل قاطع على أنها هى وحدها كافية فى الاستدلال وكأنه – سبحانه وتعالى : يقول " من قدر على خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من نطفة ضعيفة مهينة وخلق هذه الكونيات العجيبة هو إله واحد لا شريك له وهو قادر على كل شئ وعلى بعث الموتى وحسابهم وجزائهم فهو بهذا إله يستحق أن يفرد بالعبادة – وأيضا اكتفى بالنطفة لأنهم يعرفونها جيدا ، ولأنهم ما زالوا مقلدين لأبائهم وأجدادهم لا يستعملون عقولهم ولهذا فهو يخاطبهم بما يعرفون بما يتناسب مع مقتضى حالهم من المعرفة وحتى لا يخاطبهم بما هو فوق طاقتهم ؛ و " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " [2] . وسبحان من كان هذا كلامه !!!

* * *

والترتيب السابع عشر لآيات خلق الإنسان ، هو لآيات سورة المؤمنون : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغه عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون * ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت

([1]) ٢١٦٠ جـ ٤ فى ظلال القرآن .

([2]) البقرة . الآية الأخيرة .

بالذهن وصبغ للآكلين * وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكـــم فيـــها منافع كثيرة ، ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون * [1] .

تبدأ سورة (المؤمنون) بالحديث عن المؤمنين الفائزين المفلحين وأوصافـــهم " قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * ..... أولئك هـــم الوارثـــون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون * " ثم عرضت (آيات خلق الإنســـان) الـــتى ذكرت سبعة أطوار من خلقه ومن هذه السبعة خمسة أطوار لم تذكر من قبل فى الســـور السابقة النـــزول على (المؤمنون) وهى (السلالة من الطين) و (المضغـــــــه) و (العظام) و (كسوة العظام لحما) ثم (الإنشاء خلقا آخر) .

أما الطوران الآخران فقد ذكرا من قبل : وهما (النطفة) و (العقلة) ومـــع ذلك فقد كان لهما فى سورة (المؤمنون) بخاصة تدرج أو وصف جديد ممـــا يجعلنا نقول : إن الأطوار السبعة – هنا – فى سورة (المؤمنون) لم تسبق لها ذكر كلـــها فى السور السابقة وذلك للتصريح بجعل النطفة فى قرار مكين والتصريح بخلـــق النطفـــة علقة والتصريح بتطور العلقة وتحولها – بقدرة الله إلى مضغه – وذلك مما يلفت النظـــر ويبعث على التفكير ولعل انفراد سورة (المؤمنون) بهذه الزيادة يرجـــع إلى أن هـــذه السورة نزلت فىأواخر العهد المكى ؛ إذ أنّ ترتيب نزولها هو الرابع والسبعون وترتيبـــها بين آيات خلق الإنسان هو السابع عشر وهى جميعا اثنتـــان وعشـــرون ثم إنهـــا هـــى وســـورة (السجدة) وسورة (الانفطار) آخر ما نزل بمكة من السور المشتـــملة على (آيات خلق الإنسان) وفى ذلك الوقت كان قد دخل منـــهم الكثـــيرون فى الإســـلام وآمنوا بالغيبيات ومنها البعث ، إلى جانب أنه مازال – هنالك – بمكة الكثيرون الذيـــن لم يؤمنوا وظلوا على عنادهم وإنكارهم الشديد للغيبيات والوحدانية والقيامة والبعـــث ، ويتآمرون على الدعوة ويصدون عنها ، ولا نشك فى أنه كان فيهم من تفتحت أذهـــانهم بعد تكرار أدلة خلق الإنسان للتدليل على البعث والغيبيات الأخرى فـــأصبح عندهـــم القابلية للاستماع والاستجابة لكنهم لم يؤمنوا عنادا وتكـــبرا وحفاظـــا علـــى المكانـــة

---

(1) ١٢ – ٢٢ سورة المؤمنون .

الاجتماعية ، ولهذا ذكرت آيات سورة (المؤمنون) جل مراحل خلق الإنسان[1] كأدلة على إمكان الغيبيات و البعث ، كما تحدثت عن أدلة أخرى تعضدها ... فالقصد إلى أن تكون – والله أعلم – وافية جامعة لكل ما ذكر من قبل من مراحل وما لم يذكر لسوق العبر للناس بعامة وللمكذبين بالبعث والقيامة والوحدانية بخاصة ولهذا افتتحت الآيات بالقسم المؤكد : " ولقد خلقنا الإنسان .. " الموحى بالتهكم والتعريض بمن لم يؤمنوا ، والقسم والتاكيد والتعريض من الوسائل البلاغية للافناع والاقتناع ؛ إذ فى تلك الوسائل مدعاة وبعث على التفكير ومراجعة للنفس ورجوع إلى الحق والفضيلة ، ولم يرد هذا القسم فى أية آية أخرى من آيات خلق الإنسان مما سبق أو ما لحق ، وذلك لظهور شدة إنكار المعارضين المنكرين من أهل مكة والطائف الذين آذوا الرسول فى ذلك الوقت حتى ذلك الوقت ولتماديهم فى ذلك فهو قسم مطابق لمقتضى حالهم من الجدال والإنكار الشديدين بعد مرور هذه الفترة الطويلة منذ نزول أول آية نزلت من القرآن تتحدث عن خلق الإنسان " ... خلق الإنسان من علق * " .

وبدء الآيات بذكر (خلق الإنسان) " ولقد خلقنا الإنسان ... " يعنى خلق هذا الجنس المتمثل فى آدم أبى البشر – عليه السلام – ولهذا بدأت بذكر " سلالة من طين " فى خلق آدم وهذه أول مرة يوصف فيها الطين بأنه سلالة " والسلالة هى الخلاصة القليلة [2] وهى التى قبل التسوية ونفخ الروح وقيل هى : (الصلصال) وفى التعبير بالسلالة تعظيم لقدرة الله – تعالى – الذى جعل من هذا الجزء الضئيل الجماد

---

(1) لم يبق من هذه المراحل أو الأطوار بعد سورة (المؤمنون) إلا " سلالة من ماء مهين " و (نفخ الروح) صراحة فى (السجدة) و (التعديل) فى سورة (الانفطار) و (صلصال كالفخار) فى (الرحمن) وهذه السور مكية – ثم (النطفة الأمشاج) فى سورة (الإنسان) و (المضغة المخلقة وغير المخلقة) فى (الحج المدنيتين –ويحتمل أن يكون (نفخ الروح) والتعديل داخلين فى قوله – تعالى – " ثم أنشأناه خلقا آخر) فى المؤمنون) .

(2) السلالة هى الخلاصة المسلولة من شئ آخر قد يكون كدرا أو غير كدر ووزنها (فعالة) بضم الفاء ، ويعنى هذا الوزن القلة مثل : (القلامة) و (القمامة) و (الصبابة) (ينظر ٢٧ جـ ٣ الكشاف للزمخشرى و ٢٣ جـ ١٨ تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ومثلها " سلالة من ماء مهين " كما سيأتى – انظر ص ٧٠ ، ٧١ .

ذلك الكائن الذى بقدرته – سبحانه – وتعالى صار خلقا سويا ذا روح وعقل وحيـــاة وحركة وفى الوقت نفسه فيه تحقير شأن الإنسان المنكر للبعث إذ كيف ينكره وقد كـان – أصلا – حقيرا فصار خلقا عظيما ويلى " سلالة الطين " ذكر أطوار خلـــق ذريتـه بالترتيب الخلقى بداية من أول مرحلة وهى (النطفة) وكأنه – سبحانه وتعالى – يقول لهم : إن الذى طور الطور الأول فى آدم حتى وصل – وهو من الطـين الجمـاد – إلى الإنسان الحى ذى الروح والحياة والحركة والعقل : قادر على أن يطور الطـور الأول فى ذريته وهى النطفة التى تعرفونها جيدا فى هذه الذرية وهى ماء مهين فيه حياة من إنســان حى إلى العلقة فالمضغة فالعظام المكسوة لحما فالتسوية والتصوير والتعديل وتمييز الخلقـة من باب أولى فكل من الخلقتين فى آدم وذريته ختامه واحد وهو (الحيـاة) وفى ذلـك إشارة إلى قدرة الله – تعالى – فى خلق الإنسان وموته ثم بعثه من عدم كما كـان ، وفى ذلك – أيضا – أبلغ رد على منكرى البعث كما أن ذلك البدء بسلالة الطين فى آدم وبالنطفة فى ذريته بعد هذا القسم المؤكد الملفت للنظر فيه براعة استهلال فى مبدأ قصة (خلق الإنسان) توحى بما سيأتى بعدها فيتهيأ الذهن لما يأتى من التطورات الأرقى ولسماع الأدلة اليقينية التى لم يسمعوها من قبـل على إمكان الغيبيات والبعث من عدم مرة أخرى .

وهنا – وبعد تكرار (النطفة) – فيما سبق – عرفهم أكثر بما بعد معرفتـهم القوية لها وهى أنها هى التى تصب فى " قرار مكين " وهم يعرفون أنها تستقر فى (بطـن الأم) وكفى أما ما هو وما وصفه فلا يعرفون فجاءت الآيات – هنا – وفى (المرسلات) وعرفتهم بأنه (مكان مكين) يحافظ عليها حتى تصير جنينا ثم يخرج طفـلا سـويا ..... وفى هذا تدرج معهم من مطلق النطفة فيما سبق إلى نطفة فى (قرار مكين)

أملا فى أعمال فكرهم وتعريفا بهذا القرار الذى يحافظ على الجنين فى كل الأحوال بما خلق الله من عوامل محافظة من الرجات والضربات والاضطرابات [1] .

و(العلقة) ذكرت كثيرا من قبل ، وقد عرفهم الله بما فى أول سورة نزلت من القرآن " خلق الإنسان من علق " [2] وذكرها هنا ليس لمجرد تكرارها لقرع أسماعهم فحسب ولكن لبيان قدرة الله – تعالى – فهى متطورة عن مرحلتين سابقتين عليها هما (نطفة الرجل) و (بويضة المرأة) ؛ لهذا فهى كما قالوا : مبدأ التحول الحقيقى إلى الجنين [3] ، ولأجل التدرج مع العقل الإنسانى تخطى مرحلة (الأمشاج) هنا - وأخرها للحديث عنها بخصوصها فى المدينة فى سورة الإنسان – كما سيأتى – إن شاء الله .

و (المضغة) – أصلا فى اللغة : هى قدر ما يمضغ من اللحم وغيره [4] وقد قدرت بنحو سنتيمتر واحد [5] وهى متطورة عن العلقة وعقبها ولهذا عطفت بالفاء التعقيبية :" فخلقنا العلقة مضغة " وفيه إشارة لهم إلى أن عناية الله – تعالى – لا تتخلى عن رعاية هذا المخلوق ، والتعبير بالمضغة تعبير هادف فهم يعرفون معناها جيدا فهى هنا استعارة تصريحية قصد منها وصف هذه المرحلة وتقريب مقدارها إلى عقل الإنسان

---

(1) بلاغة القرآن تتوافق مع بحوث العلم الحديث فقد ثبت أن ما جعل الرحم (قرارا مكينا) هكذا عدة عوامل تقرب من العشرين هياها الله لحفظ الرحم واستقراره فى مكانه حتى لا يصاب الجنين بأذى ومن هذه العوامل : الحوض ، وتسعة أربطة مختلفة للرحم ، والسائل الأمنيونى الذى يحيط بالجنين ليحميه من الصدمات والحركات العنيفة ومنها هرمون المشيمة الذى يساعد على تثبيت الجنين ، وهرمون الحمل الذى يعمل على تقلص عضلات الرحم فيجعلها متئدة ، ومنها تعلق النطقة الأمشاج بجدار الرحم العلوى الخلفى . (ينظر ٥٥ – ٥٨ ، ٦٤ – ٦٧ ، ٤٢٤ ، ٥٠٢ (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) د . محمد على البار .

(2) ينظر ص٨٣ من هذا البحث .

(3) ٣٦٨ خلق الإنسان بين الطب والقرآن – وانظر أيضا جـ٨٤من هذا البحث .

(4) ٥٨٢ جـ ٢ المصباح المنير للفيومى و ٢٤ جـ ١٨ التحرير والتنوير .

(5) ٣٢ مجلة المجاهد : نوفمبر ، ديسمبر صـ ٨٨ د. عبد المجيد الزندانى

القاصر الجاحد فهى فى وصف ومقدار ما يمضعه فى فمه وفى شبهه " إذ تبـــدو بســـبب الكتل البدنية ، وكأن أسنانا انغرست فيها ولاكتها ثم قذفتها " [1] وفى ذلك إشـــارة إلى حقارة أصل الإنسان المتكبر المنكر لوحدانية الله – تعالى – وللبعث فكأنه مضغة تتـــزز منها ماضغها فلفظها وهى على هذا الحال ، وفيه إشارة لهم – أيضـــا إلى قـــدرة الله – سبحانه – التى جعلت من تلك المضغة الصغيرة المهينة إنسانا سويا ، ومن قدر على ذلك فهو قادر على بعث الموتى بلا ريب .

ثم نتحدث الآيات عن الطورين الرابع والخامس فى خلق ذرية آدم وهما مرحلتا (خلق العظام) ، و (اللحم والعضلات) " فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما " وهنا - أيضا - عطف بالفاء التعقيبية حيث إن " النقلة من المضغة إلى العظام ، ومن العظام إلى اللحم نقلة سريعة متلاحقة متتابعة دون فاصل زمنى ... " [2] وفى ذلك ما فيه من إظهار قـــدرة الله – تعالى – وتعظيم لعلمه وخلقته ، ، والتنكير فى (عظام) " فخلقنا المضغة عظاما " يوحى بالتكثير والتنويع والتعظيم فهى كثيرة متنوعة عظيمة فى خلقـــها والتعبير بكسوة العظام لحما " فكسونا العظام لحما " تعبير بلاغى دقيق جامع فالكســـوة استعارة تصريحية قصد منها تقريب صورة التفاف صورة التفاف العظم باللحم إلى أفـــهام المنكرين وتصويره بصورة دقيقة فهى تدل على دخول مرحلـــة النضـــوج والكمـــال والشمول ، كما تدل على عظمة الرعاية الإلهية واستمرارها بجـــانب هـــذا المخلـــوق الضعيف كما أنها تشعر بالجدة والوضوح والبهجة كما يظهر علـــى الإنســـان الـــذى يكتسى ملتبسا جديدا وصدق الله العظيم " ... وانظر إلى العظـــام كيـــف ننشـــزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شئ قدير " [3] .

---

(1) ٢٥٥ خلق الإنسان بين الطب والقرآن

(2) ٢٥٥ خلق الإنسان بين الطب والقرآن .

(3) ٢٥٩ سورة البقرة .

ثم تتحدث الآيات عن الطور الأخير أو الأطوار الأخيرة فى قولـــه – تعالى – : " ... ثم أنشأناه خلقا آخر " وذلك قد يشمل تعديله وتصوير وجهه وتســـــويته ونفـــخ الروح فيه وتمييز أعضائه وتـــمييزه هو عن أجنة الحيوانات بالخصائص الإنسانية فيـــه ، أما عدم تصريحها بتلك الأطوار فلإعطائهم فرصة التشوق والتفكير فى (الإنشاء خلقـــا آخر) ولهذا ذكرت صراحة فى سورة السجدة ... ثم الانفطار آخر سورة مكية تتحدث فى خلق الإنسان "... الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبـــك " ثم فى سورة السجدة المكية ...

والعطف بثم لا يوحى بالتراخى فى الزمن بل بأن المعطوف أعظم مـــن المعطوف عليه [1] وهو كذلك ؛ إذ أن تصوير الوجه وكونه ذكرا أو أنثى ... وتســـويته وتعديله ونفخ الروح فيه لا ريب أن ذلك أعظم وأدق ، ويشتمل على أسرار أعظـــم ؛ ولذا جاء لفظ " خلقا " نكرة تحمل دلالات بلاغية عظيمة ؛ إذ تدل على تفخيم هـــذا المخلوق الآخر الدال على عظمة الله – سبحانه – وقدرته غير المتناهية ؛ إذ ينتقـــل إلى أوصاف الإنسان ويبتعد عن شبهه بجنين الحيوان [2] .

ثم تختتم الآيات بالثناء على الله – تعالى – : " فتبارك الله أحســـن الخـــالقين " والفاء للسببية أى بسبب هذه الخلقة العجيبة العظيمة " تبارك الله أحسن الخـــالقين " أو أنها واقعة فى جواب وجزاء شرط محذوف وأصل الكلام : " إذا كانت خلقة الله – تعالى – هكذا فى عظمتها وعجائبها " فتبارك الله ... " ومتعلق اسم الفـــاعلين " الخـــالقين "

---

(1) يراجع – أيضا – ٤٩٩ ، ٥٠٠ خلق الإنسان بين الطب والقرآن .

(2) جنين الإنسان يشبه جنين الحيوان فى أطوراه الجسدية ، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقا آخر فيتحـــول إلى تلك الخلقة المتميزة وذلك أن البويضة الملقحة بالحيوان المنوى الإنسانى تحمل كل صفات الإنســـان الجسدية والعقلية والنفسية " فقبل الشهر الثالث شكله يشبه جنين السمكة أو الطائر أو الأرنـــب أو القرد ..... ولا فرق يبدو واضحا يمكن الاعتماد عليه ؛ لنقول : هذا جنين دجاجة أو سمكة أو جنـين إنسان ، أما فى الشهر الثالث فيتخذ وجه الجنين الشكل الإنسانى المميز " ٣٥٣ خلق الإنســـان بـــين اطب والقرآن د . محمد على البار وايضا ٢٤٥٩ جـــ ٤ فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

محذوف ليدل على العموم فيشمل خلق الإنسان وخلق غيره والأرض والجبال والحيوان والشمس والقمر والنجوم ... الخ [1] .

و " أحسن " أفعل ليس على بابه من التفضيل ؛ إذ ليس هناك خالقون آخرون وهو أحسنهم ، بل فضل هذا الوزن ؛ ليدل على الوصف المطلق [2] أى الحسن المطلق ؛ ليكون أتم وأشمل للدلالة على أنه لايدانيه حسن فى كل زمان ومكان فهو غير متناه لا يتأتى لغيره ، وعلى هذا يكون لفظ " الخالقين " بمعنى المفرد ؛ لأن المعنى (هو الحسن الخلق فى كل شئ على الإطلاق فهو من صور خلاف فى مقتضى الظاهر لهذا السر البلاغى .

ومثل هذا فى عدم قصد التفضيل قول امرئ القيس يصف فقاقيع الخمر :

كان صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

فهو لا يقصد بالصغرى والكبرى التفضيل وإنما مطلق الصغيرة والكبيرة أى كأن الصغيرة والكبيرة منها وليس الأكبر والأصغر فهذا ليس مراد الشاعر ، وكذلك " أحسن الخالقين "

* وأطوار خلق الإنسان هذه تعتبر دليلا مقدما على المدلول عليه كما هو ديدن بلاغة القرآن الكريم والمدلول عليه أو بعض المدلول عليه هو البعث يوم القيامة لحساب الناس وجزائهم المذكور فى قوله تعالى : " ... ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون " [3] .

- هذا ... ولم تكتف سورة (المؤمنون) بأدلة خلق الإنسان على إمكان الغيبيات وعلى البعث بل ساقت بعدها آيات كونية أخرى تتمثل فى خلق أنواع من المخلوقات تؤكد قصة خلق الإنسان ، وتؤكد إمكان أن

---

(1) ٢٥٤ جـ ١٨ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور .

(2) انظر - أيضا - ٢٤٥٩ فى ظلال القرآن .

(3) ١٥ ، ١٦ المؤمنون .

يخلقه الله - سبحانه - من عدم بعد موته وهى تعضد أدلة أطوار خلق الإنسان وهى أعظم من خلقة جاء ذلك فى الآيات الكريمة : " ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين * وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون * "[1] .

بل إن سورة (المؤمنون) أخذت تسوق العبر للناس بعامة وللمجادلين فى شأن الغيبيات والبعث من سير المكذبين السابقين كقوم نوح وموسى وغيرهما ، والعبرة فى خلق عيسى – عليه السلام – من غير أب بكلمة الله " كن " وأخذت تستمر فى سوق الأدلة الكونية حتى سألتهم عن الأرض ومن فيها لمن تكون ؟ ومن رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وعمن بيده ملكوت كل شئ ... وهو يجير ولا يجار عليه ... ، وكانت إجاباتهم عن كل ذلك : (الله) " قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ * سيقولون لله قل : أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ * سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ * قل من بيد ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ * سيقولون لله قل : فأنى تسحرون * ؟ "[2] .

وينضم إلى هذه الاعترافات اعترافاتهم صراحة بخلق الله لهم ، وللسموات والأرض وللشمس والقمر وإنزال الماء من السماء لإحياء الأرض . ومع ذلك يكذبون بالقرآن ويجادلون فى شأن الغيبيات " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله

---

(1) ١٧ – ٢٢ المؤمنون .

(2) ٨٤ – ٨٩ المؤمنون .

فأنى يؤفكون ؟ [1] ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " [2] " ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا بـــه لأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون " [3] .

* ثم تستمر سورة المؤمنون حتى تختتم بما له صلة -- أيضا بآيات خلق الإنســان وهو الحديث عن خلق الناس والحكمة منه وعن بعثهم وتكذيبهم وعن وجدانيـــة الله – تعالى – فى قوله – تعـــالى – : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مـــع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقـــل رب اغفـــر وارحم وأنت خير الراحمين * " وسبحان من هذا كلامه !!

* * *

والترتيب الثامن عشر لآيـات خلق الإنسان هو لآيات سورة السجدة " ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذى أحسن كل شئ خلقه ، بـــدأ خلـــق الإنسانية من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون * وقالوا أئذا ضللنـــا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون * قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكـــل بكم ثم إلى ربكم ترجعون * "

المحور الأساسى لهذه السورة يدور حول قضيتين خطيرتين :

الأولى : حول القرآن وتكذيبه وادعاء أن محمدا افتراه من عند نفسه .

والثانية : حول البعث والقيامة والحساب والجزاء وإنكار الكافرين لذلك .

ويلاحظ فى القصة الأولى شيئان :

---

[1] ٨٧ الزخرف .

[2] ٦١ العنكبوت

[3] ٦٣ العنكبوت .

١ – أنه قدم المدلول عليه على دليله وهو – هنا – قضية القرآن وادعاء الكافرين أن محمدا افتراه من عند نفسه " تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه .. * "

٢ – أن الرد على هذه القضية كان مباشرة وعقبها وبالدليل على بطلان ادعائهم " .. بل هو الحق من عند ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون * الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ... "[1]

ويلاحظ فى القضية الثانية . وهى (إنكار البعث والغيبيات الأخرى) عكس القضية الأولى ؛ إذ فيها تقديم الدليل على المدلول عليه وعكس العدة فى ذلك والدليل يتمثل فى (أطوار خلق الإنسان) " الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون * " والمدلول عليه المتأخر عن دليله يتمثل فى قوله – تعالى – " وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ؟ بل هم بلقاء ربهم كافرون * قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون * "[2] .

كما يلاحظ فى الدليلين . أنهما مشتركان بين القضيتين (ادعاء الكافرين أن محمدا افترى القرآن من عند نفسه) و (إنكار الغيبيات والبعث) بدليل قوله عقب الدليل الأول : " .. الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه .... قليلا ما تشكرون "

([1]) ١ – ٧ سورة السجدة .

([2]) ٧ – ١١ سورة السجدة .

فقوله – تعالى – " أحسن كل شئ خلقه " يدخل فيه ما تقدم وهـــو الدليـــل الأول " الله الذى خلق السموات والأرض ..... الخ كما يدخل فى هـــذا الإحســـان (خلق الإنسان) لأنه يدخل فى " كل شئ خلقه " وبدليل عطف (خلق الإنسان) علـــى الخلق العام " أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طـــين " وعلى هذا يكون الاستشهاد على دحض قضية إنكار البعث بدليلين : الدليل الأول الـــذى رد بـــه مباشرة على من ادعوا افتراء محمد للقرآن والمختوم بقوله – تعالى – : " الذى أحســـن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان طين ... " والدليل الثانى هو (أطوار خلق الإنســـان) بداية من الطين ثم التسوية ونفخ الروح فيه وجعل له السمع والأبصـــار والأفئـــدة ... وعليه يكون الاستدلال على دحض " إنكار البعث " دليلان مقدمان على المدلول عليه ، وقد جرى تقديم الدليل على المدلول عليه فى هذه القضية فى كثير من الآيات .

أما لماذا كان للبعث والغيبيات دليلان مقدمان على المدلول عليه دون غيرها فلأن هذه غيبيات يكذبون بها وتحتاج إلى أكثر من دليل لإقناعـــهم ثم الاقتنـــاع بأدلتها أو لا ليكون الاقتناع بالمدلول عليه أسرع وأسهل – أما ادعاء (افتراء القـــرآن من عند محمد) فليس أمرا غيبيا يحتاجون للاقتناع به ولهذا يكفى فيـــه دليـــل واحـــد لدحضه ولا يلزم فيه أن يقدم الدليل على المدلول عليه ، وهذا ما كـــان مـــن تقديم (ادعاء الافتراء) على خلق السموات والأرض ..... لأنهم يعترفون بخلق ذلك لله – تعالى – : " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولـن الله فأنى يؤفكون " " قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليـــه إن كنتـــم تعلمون ؟ . سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ . [1] .

ولأجل هذا الخلق الأكبر أشير إلى الخالق الأعظم بإشارة التعظيم " ذلك عـــالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان مـــن

---

(1) ٨٨ ، ٨٩ المؤمنون .

طين * وفى هذا الانتقال تدرج لطيف مع عقل الإنسان الجاحد من ذكر خلق الاكبر إلى ذكر خلق الأصغر لبيان أن خلق الأصغر أهون ولا تختلف العقول فى ذلك وصدق الله العظيم : " وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم " (١) .

* واملاحظ أن آيات خلق الإنسان فى هذه السورة قد ذكرت أطوار (الطين) و (سلالة من ماء مهين) و (التسوية) و (نفخ الروح) .

كما نبهت على نعم خاصة فى خلق الإنسان وهى (السمع) و(الأبصار) و (الأفئدة) كما نلاحظ أن هذه الأطوار (الأدلة) وتلك النعم تقدمت على المدلول عليه وهو " البعث والغيبيات الأخرى " .

" ... ثم إلى ربكم ترجعون " – كما وضحنا ذلك سابقا ، وكما قلنا من قبل : إن ذلك من ديدن بلاغة القرآن فى تقديم الدليل على المدلول عليه ليكون الإبلاغ أسهل وأسرع واستمالة المدعوين إلى الإيمان أيسر ؛ لأنه إذا اقتنع بالدليل وسلم به اقتنع بالتالى بالمدلول عليه . وسبحان من هذا كلامه !!!

* أما أطوار خلق الإنسان فقد بدأت بطور (الطين) وهو فى خلق أبى البشرية (آدم عليه السلام) وساقته الآية مجردا من الوصف ؛ لأن المهم أنه جماد خلق الله منه إنسانا ذا روح وحياة وحركة سواء كان طينا مطلقا أو موصوفا باللزوبة أو السلالة أو من حمأ مسنون وغير ذلك فالمهم أن قدرة الله – تعالى – قد خلقت من هذا الطين الجماد إنسانا كامل الخلقة عاقلا حيا ذا حركة وتفاعل . هذا إلى جانب أنهم سمعوا من قبل هذه الأوصاف للطين فلا داعى لذكرها هنا دون داع يستدعيها وقد يكون هذا اعتمادا على ذكر بعض المراحل التى لم تذكر من قبل كسلالة من ماء مهين ، ونفخ الروح واعتمادا كذلك على ذكر بعض نعم الله كالسمع والأبصار والأفئدة .

---

(١) ٢٧ الروم .

* ثم ثنت الآيات بذكر طور " سلالة من ماء مهين " وهذا – كما قلت – أول مرة يذكر فيها هذا الطور ويعنى بهذه السلالة : الخلاصة القليلة من النطفة [1] وهى حسب اكتشاف العلم الحديث ، الحيوان المنوى الأقوى الذى يستطيع أن يخترق بويضة الأنثى ويدخلها فإذا دخل ماتت الحيوانات الأخرى ولهذا كان " سلالة " أى خلاصة قليلة ، وفى ذلك إظهار لقدرة الله – تعالى – فى خلق ذرية آدم إذ جعل – سبحانه – هذا الإنسان الكامل العاقل من هذا الماء القليل الذى يحسون به ويعرفونه جيدا ويعترفون بأن الإنسان خلق منه وفيه حث لهم على البحث والتفكر والتنقيب عن تلك السلالة التى يعرفون معناها اللغوى كل المعرفة لعلهم يصلون إلى حقيقة هذه السلالة المعجزة فيهتدون وصدق الله العظيم " وفى أنفسكم أفلا تبصرون "[2] .

* و (التسوية) سبق شرحها من قبل فى القيامة والكهف والمؤمنون والانفطار [3] وهم يعرفون معناها وستأتى فى (الانفطار) " الذى خلقك فسواك فعدلك " .

* وأما (نفخ الروح) فسورة (السجدة) هى السورة الوحيدة التى انفردت بالتصريح به ، والروح سر من أسرار الله تعالى احتفظ به لذاته – سبحانه – وصدق الله العظيم " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " [4] ولعظم هذه الروح أضافها – سبحانه – إلى نفسه فقال – تعالى – : " ونفخ فيه من روحه " وهم يعرفون جيدا أن الروح إذا فاضت مات الإنسان فهو يخاطبهم بما يعرفون حتى يكون خطابهم وفق مقتضى حالهم من المعرفة أما اختصاص هذه الأطوار بذاتها فى هذه السورة فلأن هذه السورة تلى فى النزول مباشرة سورة (المؤمنون) التى ذكرت جل أطوار خلق الإنسان فلا زالت هذه الأطوار هم على ذكر منها فالمناسب

---

(1) راجع تعليق ص١٢٩

(2) ٢١ الذاريات .

(3) راجع ص ١٧ ، ١٨ القيامة و ٥٥ الكهف ، و ٦٠ المؤمنون و ٧٧ الانفطار .

(4) ٨٥ الإسراء .

بعد هذا أن توجز هذه الأطوار ويصرح فيها بما لم تصرح به سورة (المؤمنون) أو غيرها من (سلالة الماء المهين) و (نفخ الروح) وقد يكون ذكر هذه الأطوار – هنـــا – فى السورة التى تلى سورة (المؤمنون) تفسيرا لما أجمل فى قوله تعالى فيها " ... ثم أنشـــأناه خلقا آخر " أما لماذا هذا الإجمال ثم التفصيل هنا فللتدرج مع عقولهـــم ؛ وللدفعـــهم إلى البحث والتنقيب أو التساؤل عما أجمل ليستقر فى أذهانهم أكثر وهذه بلاغة التفصيـــل بعد الإجمال المعروفة فى البلاغة ، كما أن هذه السورة قبل الأخيرة من السور المكية كما أن هذه السورة قبل الأخيرة من السور المكية التى فيها ذكر لأطـــوار خلـــق الإنســـان فناسب أن يذكر فيها – بعدما سمعوا من أطوار (خلق الإنسان) فيما سبق الحديث عـــن (نفخ الروح) وهو فى نظرهم أهم مظاهر حياة الإنسان لأنهم يعلمون جيدا أن الـــروح إذا خرجت من الإنسان مات وحمل إلى قبره فلابد إذن أن ينبهوا إلى أن هذه الروح مـــن اختصاص الله – سبحانه – وتعالى – فهو الذى يودعها جسم الإنســـان وهـــو الـــذى ينـــزعها وهو الذى إذا شاء أن يطيل عمر الإنسان فيؤخر نزعـــها إلى وقـــت آخـــر ، وذكرها فى أواخر العهد المكى – بعد ما سمعوا الأطوار الأخرى – لعلـــه يدفعـــهم إلى الإيمان إذا حدثهم بما هو معروف لهم يتذكرونه عند فقد الأعزاء ، وفى ســـاعة الفـــراق وهكذا تدرج معهم القرآن فى مكة فذكر الأطوار وكررها لحكم بالغة حتى ذكر فى النهاية أهم مرحلتين فى نشاة الإنسان وهما (السلالة التى من اماء امهين) و (نفخ الروح) ولم يذكر - سبحانه - هذين الطورين فيما سبق لأنهم لا يفهمونهما لو خوطبوا بهما فى مبدأ الحديث عن هذه الأطوار فذكرهما فى الوقت المناسب وفى السورة التى ترتيبتها الخامس والسبعون كما ذكر فى السورة التى ترتيبها الرابع والسبعون (المؤمنون) جل الأطوار وهكذا يخاطبهم على مقتضى حالهم وعلى مستوى عقولهم وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم " .

* ثم ذكرتهم الآية بنعم عظيمة فى خلق الإنسان ألا وهى نعم (السمع) و(البصر) و (الأفئدة) " وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون * " .

والذى يلفت النظر ويسترعى الانتباه أن تذكر النعم الثلاث بعد ذكر (نفخ الروح) مباشرة ، لو دققنا النظر نجد أن السر فى ذلك واحد من اثنين أو هما معا – والله أعلى وأعلم .

الأول ، أنهم إذا أرادوا أن يتأكدوا أن روح المحتضر فارقت جسده فصار فى عداد الأموات أو ما زال حيا عرفوا ذلك عن طريق هذه النعم أو هذه الآلات الثلاث ؛ فينظرون إلى عينه (بصره) أو جسده عامة ، أو ينادونه أو يكلمونه فى أذنه ، أو يجسون نبض قلبه (فؤاده) فأراد الله أن يذكرهم بما هو مناسب وقت نزع الروح المذكورة آنفا بل يذكرهم بقيمة الروح نفسها ومكانتها لديهم لعلهم يؤمنون بقدرته – سبحانه – على بعث الموتى .

الثانى ، لأهمية هذه النعم الثلاث فى حياتهم فهو يذكرهم بنعم عظمى خلقها الله فيهم ؛ إذ تكاد تعادل فيهم النعم الأخرى والتى يعلمون أنها مخلوقة بقدرة الله – تعالى – ؛ فهى أدلة أخرى واضحة على بعث الموتى ولهذا – أيضا – فقد امتن الله بهذه النعم على عباده فى كثير من آيات القرآن الكريم لما لها من أهمية ، بل أهميات كبرى فى حياة الإنسان من تلك الآيات الكريمة :

" والله أخرجكم من بطون أمهاتكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " [1] .

" قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * " [2] .

([1]) ٧٨ النحل .

([2]) ٤٦ الأحقاف .

" ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئـــدة فمـــا أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ ؛ إذ كانوا - يجحدون بآيـــات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون * " (١) .

" أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون *" (٢) .

" ولقد زرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهـــم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون * " (٣) .

وهكذا تدرج القرآن الكريم الحكيم مع المتكبرين المنكرين للغيبيات وللبعث بطريقة عقلية تربوية يكادون يسلمون بها حتى آمنوا وأذعنوا ولا غرو وفهو كلام علام الغيوب الذى يعلم سرنا ونجوانا بل يعلم السر وأخفى من السر .

وسبحان من هذا كلامه !!!

* * *

والترتيب التاسع عشر لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة الانفطار المكية هى آخر آيات خلق الإنسان المكية : " يأيها الإنسان ما غرك بربك الكـــريم * الـــذى خلقك فسواك عدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك * كلا بل تكذبون بالدين * " (٤) .

ما زالت الآيات القرآنية تسوق العبر لهذا الإنسان الجاحد المتكبر ليوم القيامـــة والبعث والحساب والجزاء ، وتقيم الأدلة على تحقيق ذلك فقدمت بالعلامات الكـــبرى للساعة فى الآيات الكريمة : " إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكـــب انتـــثرت * وإذا

---

(١) ٢٦ الأحقاف .

(٢) ١٠٨ النحل .

(٣) ١٧٩ الأعراف .

(٤) ٦ - ٩ سورة الانفطار .

البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخـرت * "[1] وكـأن المعنى : سيكون " الدين " أى الجزاء على أعمالكم فى ذلك اليوم الفظيع ، ثم كان هـذا النداء لكل إنسان جاحد " يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . أى أى شـىء جعلـك تغتر وتعصى ربك ؟ وهو قد خلقك ونقل خلقك فى بطن أمك مـن حالـة السـيولة والرخاوة فى النطفة والعلقة والمضغة إلى حالة التماسك وتمييـز الأعضـاء وتعديلـها ، وجعلك معتدل القامة وصورك فى أحسن صورة ، ولو شاء ربك لجعلك فى صورة قبيحة تشمئز منها النفس ؟ وتاتى الإجابة عن السؤال ، " ما غرك بربك الكريم ؟ " فى قوله ، تعالى : " كلا بل تكذبون بالدين " أى : ما غرك فعصيت ربـك إلا لأنك يا جنس الإنسان مكذب بالجزاء يوم الجزاء .

ولكن لماذا اقتصرت هذه الآيات على هذه الأطوار الأربع (الخلـق والتسوية والعدل أو التعديل ، والتصوير) ما دامت هى آخر سورة نزلت بمكة تتحدث فى خلق الإنسان ؟ ولم تذكر الأطوار السابقة فى خلق الإنسان مـن الـتراب والطـين والنطفة والعلقة والمضغة ..... ذلك أن سورة الانفطار نازلة بعد هذه السور وقبلـها مباشرة فى ترتيب آيات خلق الإنسان سورة السجدة التى ترتيبها بينها الثـامن عشـر ، وترتيبها فى النـزول الخامس والسبعون وقبل هذه سورة (المؤمنـون) الـتى ترتيبـها السابع عشر وترتيبها فى النـزول الرابع والسبعون ؛ لأجل هذا أرادت الآيات فى مقـام سوق علامات الساعة والتعجب من غرور الإنسان حتى عصى ربه أن يحمل و لايفصل ؛ إذ لا داعى للتفصيل ، أو لذكر أطوار أخرى ؛ لأن المقام مقام تكذيب عام بـالجزاء ؛ إذ ركزت الآيات على ذلك لا على بعث الموتى فحسب " كلا بل تكذبـون بـالدين " ؛ ولهذا ركزت الآيات على الأطوار التى تظهر – مباشرة – وواضحة للناظر إلى خلقـة الإنسان وخلقه من عدم .

---

(1) ١ – ٥ الانفطار .

* و (اعتدال القامة) تمييز له عن ذوات الأربع تكريما للإنسان " ولقد كرمنا بنى آدم ... " [1] .

* و (التصوير) " فى أى صورة ما شاء الله ركبك " المقصود فى أى صورة حسنه – شاء – ركبك – وكل خلق الله حسن – وصدق الله العظيم إذ قال قبل ذلك : " وصوركم فأحسن صوركم " [2] .

وكان يمكن أن يكون فى صورة قبيحة ، أو فى صورة مهينة لا تكريم فيها كصور الحيوانات وصدق الله " لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم " [3] .

وهنا ملاحظة تستوقف النظر وهى أنه فى هذه السورة التى هى آخر سورة مكية تتحدث فى خلق الإنسان ذكر (الخلق) و (التسوية) و (التصوير) والثلاثة مذكورة قبل ذلك وذكرت الآية طورا جديدا لم يذكر من قبل وهو (العدل) أو (التعديل) فلما ذكر الثلاثة فى هذه السورة ، وأخر العدل حتى ذكره فيها ؟ من يدقق النظر يجد – والله أعلم – أن ذلك يرجع إلى أن (الخلق) وهو الإيجاد والتقدير من عدم نظير (بعث الموتى) الذى ينكرونه فهو عصب القضية المثارة ، وكأن ذكر الخلق تلخيص لها ولأدلتها فى آخر سورة مكية تتحدث فى خلق الإنسان ، وكأنه – سبحانه – يذكرهم باعترافهم بأنه – تعالى – هو الذى حلقهم " ولئن سألتم من خلقهم ليقولن الله فأنى تؤفكون * " وهو كتلخيص الناصح المفارق الذى يذكر بقضيته على عجالة ؛ لتكون آخر حديثه معهم فى هذا الشأن لتثبت فى أذهانهم .

هذا إلى جانب أن الخلق – هنا – يشمل ما تعلق به الخلق فى آيات (المؤمنون) الشاملة من الطين والنطفة والعلقة والمضغة والعظام وكسوتها لحما فالإنشاء خلقا آخر ؛ لهذا كان (الخلق) تلخيصا لذلك .....

---

(1) ٧٠ سورة الإسراء .

(2) ٦٤ غافر .

(3) ٤ سورة التين .

* أما التسوية سواء كانت بمعنى نقله من حالة السيولة والرخاوة إلى حالة النضج والكمال حتى صار إنسانا مبصرا سميعا عاقلا ، أو بمعنى التقويم والاعتدال فلا إفراط ولا تفريط فى أعضائه فهى مرحلة فى غاية من الأهمية ؛ لأنه لولا هذه النقلة أو التعديل لبقى فى حالة السيولة والرخاوة أو الاعوجاج ولا ينقله من حالته الضعيفة المهينة إلى حالة النضج والكمال إلا إله قادر على بعث الموتى من عدم وهو الله – تعالى – القادر على كل شئ و (التسوية) حالة شبيهه – أيضا – بالخلق من عدم الذى يعترفون بأنه لله – تعالى – ففيها - أيضا تلخيص لقضية البعث وقدرة الله تعالى – عليه .

* وأما (التصوير) فهو يعنى تخليق معالم الوجه من جبهة وعيون وأنف وفم ... وهو بذلك يتميز عن جنين الحيوانات ، وفى ذلك تكريم عظيم للإنسان " ولقد كرمنا بنى آدم ... " [1] وهو دليل قوى واضح يحمله كل منهم فى وجهه على قدرة من خلق هذه الخلقة وصور هذا التصوير وعدل هذا التعديل ، وعلى إمكانة – سبحانه – على بعث الموتى فهو دليل وتلخيص – أيضا – للقضية .

* وأما (العدل) أو (التعديل) فهو الطور أو المرحلة التى انفردت هذه السورة بطرحها وهى فى غاية من الأهمية ملفتة للنظر مستوقفة للفكر عاقلة للعقل ان يتفكر ؛ لأنه لا يوجد مخلوق معدول القامة معدلها هكذا إلا الإنسان الذى كرمه الله – تعالى – والذى يجادل بالباطل ، وهو – أيضا – دليل قوى وتلخيص واف للقضية ، وهكذا كانت هذه الأطوار الأربعة فى هذه السورة فى غاية لها أهميتها ؛ لأنها بمثابة تلخيص – أيضا – للأطوار السابقة ، وهى فى الوقت نفسه من الأدلة الدامغة لهم الشاهدة عليهم وعلى إمكان البعث .

وسبحان من هذا كلامه !!!

* وفى تاخير " التعديل " إلى آخر سورة مكية تتحدث فى خلق الإنسان تدرج مع عقولهم - أيضا - وذلك حتى يكون الطور الذى يميز الإنسان

---

(1) ٧٠ الإسراء .

من الحيوان والظاهر لهم ولغيرهم ، والواضح الذى لا يشك فيه وهـــو (العـدل) أو (التعديل) آخر أطوار خلق الإنسان ذكرا فى مكة للفت نظرهم ، واستحثاث شعورهم وتفتيح قلوبهم وعقولهم على الحق الأبلج حتى يؤمنوا بـــالبعث والغيبيـــات الأخـــرى . وسبحان من هذا كلامه .

* * *

والترتيب العشرون لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة (الرحمن) المدنية " ... خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نـــار * فبأى آلاء ربكما تكذبان * " .

* سيقت هذه الآيات فى مجال امتنان الله – تعالى – على عباده بنعمه الكثـــيرة العظيمة وبيان قدرته – سبحانه – فقبلها الآيات الكريمة : " الرحمن علم القرآن * خلـق الإنسان علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * إلى أن يقول : " خلق الإنســـان مـــن صلصال كالفخار ... " وتستمر السورة فى عرض نعم الله – تعالى – فى الدنيا والآخرة ، وتعقب على كل نعمة بقوله – تعالى – " فبأى آلاء ربكما تكذبان * " ؟ حـــتى تختتـــم بقوله تعالى : " تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام * " .

وقد ذكر من قبل طور (الصلصال) فى سورة الحجر لكنه بوصف " من حمـــأ مسنون " وعرفنا أنه (الطين المنتن اليابس الأملس " [1] و (الصلصال) من الصلصلـــة وهى الصوت الصادر عن شئ يابس عند قرعه والملفت للنظر وصفه – هنا – بقولـه : " كالفخار " وفى هذا تحديد أكثر لمعنى الصلصال الذى خلق منه وبيان أنه ليس طينا يابســل فحسب وإنما فيه – هنا – بيان وتحديد لدرجة هذه اليبوسة وهى أنها فى درجة يبوســـة الفخار وهو الطين المطبوخ بالنار المعروف من قديم بالخزف أو الفخـــار [2] وفى ذلـــك إظهار أكثر لقدرة الله الخالق العظيم ؛ إذ جعل من هذا الطين الأشد يبوسة مـــع كونـــه

---

(1) انظر ص١١٤ .

(2) انظر ١٠٩ جـ ٥ فتح القدير للشوكانى .

جمادا لا روح فيه ولا حس والحركة : هذا الكائن الحى ذا الـروح والعقـل والحـس والأمل والطموح ... ولا نعجب إذا تدرج القرآن العظيم الحكيم معهم من مجرد وصف (الصلصال) بالحمأ المسنون الذى يعنى مجرد اليبوسة إلى بيان درجة هذه اليبوسة – هنا – فإن الآية مدنية وترتيبها الثامن والتسعون فى النـزول نزلت بين قوم يتقبلون المناقشة والمزيد فيها ، وبعد أن آمن الكثيرون ودخلوا فى الإسلام ، ولهذا فهى لم تسق فى مقام جدال لإثبات البعث أو وحدانيته – تعالى – أو القيامة أو الجزاء ، بل فى مقام امتنان الله – تعالى – بنعمه على عباده فكان المناسب أن تحدد هنا – درجة يبوسته المنبئة عن هـذا الصوت الدال على شدة هذه اليبوسة فى هذا الطين المخلوق منه الإنسان آدم – عليه السلام – الذى كان منه هذه الذرية الجاحدة .

* ولأن المقام مقام امتنان بنعمه – تعالى – ذكر سبحانه – بعد كل نعمة قوله – تعالى – " فبأى آلاء ربكما تكذبـان " ، والتكرير - هنا - كما يقول بعض العلماء " طرد للغفلة وتأكيد للحجة " [1] وهو وسيلة لإثبات المكـرر فى ذهن ونفس السامع حتى يقتنع به بصرف النظر عن صاحب التكرار " [2] .

ومن التدرج البلاغى – هنا - أيضا - أنه ذكر خلق الإنسان - وهو أهون - بعد خلق السماء والأرض وما فيهما " الشمس والقمر بحسـبان * والنجـم والشـجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى المـيزان * وأقيمـوا الـوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكم تكذبان * خلق الإنسان من صلصـال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأى آلاء ربكما تكذبان *

---

(1) الشوكانى فى (فتح القدير ...) ١٨٩ جـ ٥ .

(2) راجع مقالة د / جوستاف لوبون فى التكرار ص ٣ .

" فلما ذكر – سبحانه – العالم الكبير : ذكر – سبحانه – العالم الصغير " [1] ؛ ليوضح عمليا أن خلق الإنسان أهون من خلق هذه الكونيات العظيمة ، وصدق الله الأعظم : " ... لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " [2] . وسبحان من هذا كلامه .

* * *

* والترتيب الحادى والعشرون لآيات خلق الإنسان هو لآيتى سورة (الإنسان) المدنية " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ... " [3] .

* الرأى المختار فى الأداة " هل " هو المتناسب مع السياق الذى هو الرد على منكرى البعث : أنها للاستفهام التقريرى الإقرارى التوبيخى على معنى أن السائل يحمل المسئول على الإقرار بما يعلمه ويعلمه السائل وإلجائه إلى ذلك الإقرار وإلزامه إياه لأن المخاطب (المسئول) منكر للبعث ، وجوابه . هو الذى يقر به [4] فهذا

---

(1) ١٨٩ جـ ٥ فتح القدير .

(2) ٥٧ غافر .

(3) ١ ، ٢ سورة الإنسان .

(4) " التقرير الإقرارى " (التقرير) من السائل بمعنى أنه يجعل المسئول يقر ويعترف... أما الإقرار فمن المسئول ويكون بذكر الجواب الذى يعلمه ويعلمه السائل لكن المسئول ينكره فيحمله السائل على الإقرار به ويلزمه إياه ، ومثل ذلك : ما مثل به البلاغيون : أقتلت فلانا ؟ يريد السائل أن يجعل المسئول يقر بقتله الذى يعلمه ويعلمه السائل فى نفس الوقت (٢١٤ جـ ٢ (مواهب الفتاح) للمغربى من شروح التلخيص الطبعو الأولى وراجع - أيضا - ٢١٢ جـ ١ (إعراب القرآن وبيانه) لمحيى الدين الدرويش .

و ٨٨ (الجنى الدانى فى تذوق المعانى) للباحث الطبعة الأولى وقيل : إن (هل) بمعنى (قد) فيكون الكلام على الإخبار من الله – تعالى – أى (قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " ويكون للتقرير بمعنى (التأكيد والتثبيت) وهذا لا يحتاج إلى جواب لأن الغرض تأكيد هذا الخبر فى النفوس وذلك = مثل قولك عند إرادة الانتقام أو اللوم أو العزم على الشروع فيه : " أقتلت فلانا) ؟ بمعنى (أنك قتلته) قطعا ، فلا نجاة لك اليوم من اللوم أو القتل ، فهذا المثال – كما ترى – صالح لأن يكون للنوعين من التقرير وهما : (التقرير يحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بما ينكره – مثلا – والتقرير بمعنى (التأكيد والتثبيت) (راجع مواهب الفتاح و (الجنى الدانى . الصفحات نفسها هذا ... ولا وجه لأن تكون (هل) للاستفهام المحض لأن هذا لا يتأتى من الله – تعالى – لأنه لا يكون إلا ممن لا يعلم الجواب ، وحاشا لله – تعالى – . (راجع ٢١٢ جـ ١ إعراب القرآن وبيانه ...) .

السؤال : " هل أتى ... " " تقرير [1] لمن أنكر البعث فلا بد أن يقول : نعم قد مضـــى دهر طويل لا إنسان فيه فيقال : له : من أحدثه بعد أن لم يكن ، وكونه بعد عدمه كيف يمتنع عليه بعثه وإحياؤه بعد موته ؟ ! وهو معنى قوله – تعالى – " ولقد علمتم النشـــأة الأولى فلولا تذكرون " [2] أى فهلا تذكرون فتعلمون أن من أنشأ هذا بعد أن لم يكـــن قادر على إعادته بعد موته وعدمه " [3] .

ثانيا ، هاتان الآيتان مدنيتان من سورة مدنية وقد نزلت بعد سورة (الرحمـــن) مباشرة التى ترتيبها السابع والتسعون ، ولأن السورتين مدنيتين ذكر الله –سـبحانه – كذلك فيهما من أطوار خلق الإنسان ما لم يذكر فى الفترة المكية ، ولو دققنا النظر نجـد أن السور المدنية الثلاث (الرحمن والإنسان والحج) قد ذكر فى كل منها مـا لم يذكـر هنالك فى مكة بل الذى هو أدق : ففى (الرحمن) حددت درجة الصلصال من اليبوسـة وهو أنه الذى كالفخار أو الخزف فى بيوسته وصوته عد قرعه بعد أن ذكر فى (الحجـر) الصلصال من الحمأ المسنون وهو الطين اليابس المنتن الأملس دون تحديد لدرجة بيوسـتة فذكر حاله من اليبوسة فحسب وجاءت آية (الرحمن) وحددت درجة هذه اليبوســـة على هذا النحو ، وهنا فى سورة (الإنسان) ذكرت الآية طورا جديدا دقيقـا فى فـهم يحتاج إلى البحث والتنقيب هو طور (النطفة الأمشاج) وهى بويضة الأنثـــى الملقحـة بالحيوان المنوى ، وهذا تحديد دقيق أو طور جديـد يتناسب مع أهل المدينة الذين يتسمون بقبول المناقشة ويستقبلون الجديد الدقيق بعقول إيجابية كما حصل من أهل العقبتين ، الأولى والثانية ؛ إذ وفدوا إلى الرسول فى مكة وآمنوا قبل هجرتـه إليهم واستقبله أهل المدينة مهاجرا فرحين مرحبين .

* وفى سورة الحج كذلك فصلت المضغة إلى مخلقة وغير مخلقة بعد أن ذكر فى (المؤمنون) المضغة فحسب ، فكذلك هنا فى الإنسان المدنية ذكر هذه المرحلة فلم تكـــن

([1]) أى تقرير من النوع الأول الذى هو حمل المخاطب على الاعتراف بما يعلم ويعلمه السائل .

([2]) ٦٢ الواقعة .

([3]) ٣١٢ جـ ١٠ إعراب القرآن وبيانه .

نطفة فحسب بل هى مركبة " نطفة الأمشاج " أى خليط من ماء الرجل وبويضة المرأة ، وفى ذلك تدرج مع عقلية المنكرين للبعث والغيبيات فهى نطفة فحسب قد يراد بها ماء الرجل فقط كما يعتقد أهل مكة أن الجنين منها وحدهما وهى " نطفة أمشاج " فى المدينة .

* ومن الجديد الملفت للنظر أن فى آيتى (سورة الإنسان) المدينة ما يشبه البرقية أو (الفاكس) فى زمننا هذا موجه إلى منكرى البعث والغيبيات وهو هذا السؤال التقريرى الذى يحملهم على الإقرار بما يعلمون وهو " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " ؟

وجواب هذا السؤال على القطع – إذا أجابوا بإخلاص دون إنكار (نعم أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن فيه إنسان موجود فى الحياة) وهذا سؤال تدريجى قصد إلى هذا الجواب ، ومن هذا الجواب يستخرج سؤال تدريجى آخر ممهد له هو (إذا كنتم تعترفون بذلك فهذا الأعتراف يتضمن اعترافكم بأن هناك قادرا أو جدكم من عدم وقد صرحتم به فمن أحدث الإنسان وبعد أن لم يكن وكونه من عدمه ؟ وكيف يمتنع عليه بعثه وإحياؤه ؟؟ والآية بهذا التدريج أو التدرج قد حاصرتهم وألجاتهم إجلاءا - لا فكاك منه إلى الاعتراف والإقرار بان من أوجد الإنسان بعد أن مضى دهر طويل لا إنسان فيه فهو القادر على إعادة بعثه بعد موته بلا ريب فى ذلك .

ثم تختتم الآية بما يمكن أن يكون فيه تعريض بالمنكرين الذين يطلب منهم الإجابة على هذا السؤال التقريرى الإقرارى وهو قوله تعالى : " فجعلناه سميعا بصيرا " وكأنه – سبحانه – يقول لهم : إن لكم أسماعا وأبصارا يمكنكم أن تهتدوا بها إلى الإجابة والاعتراف بأن من خلق البداءة بيده – يخلق الإعادة ولكنكم لم تفعلوا وصدق الله : "

وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * " [1] .

وبهذا تكون هاتان الآيتان – كما قلت – قد حاصرتهم وألجأتهم إلجاءا – لا فرار منه إلى الاعتراف لاستمالتهم إلى الإيمان وبخاصة أنهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون " . وسبحان من هذا كلامه !!!

* * *

والترتيب الثانى والعشرون لآيات خلق الإنسان هو لآيات سورة الحج المدنية " ... ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير * يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ؛ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرزل العمر ؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور * " [2] .

بدأت هذه السورة المدنية الكريمة بتوجيه خطاب عام إلى الناس بأن يتقوا ربهم لأن " زلزلة الساعة شئ عظيم " وأنها ذات هول فظيع ؛ إذ عند حدوثها تقع شبه المستحيلات فتصير ممكنة لدرجة أنه فى ذلك اليوم تذهل الأم عن رضيعها ، وكل ذات حمل – من هولها – تسقط جنينها ، وترى الناس جميعا سكارى دون أن يتعاطوا مادة تسكرهم ولكن من هول مشهد القيامة والخوف من عذاب الله الشديد للكافرين والعاصين .

---

(1) ٢٧ سورة الروم .

(2) من ٥ إلى ٧ سورة الحج .

ثم تتحدث الآيات عن بعض هؤلاء الناس وتصفهم بأنهم طبعوا على الجـدال فى الله وفى الحق وهم جهلاء بالحقيقة والحق : " ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ... * " ومن يدقق النظر يجد أنه – سبحانه – يعنى بهم من لا يزالـون يجادلون فى شأن بعث الموتى وفى يوم القيامة وهم الذين نزلت بشأنهم آيات كثـيرة وإذا كانت الآيات – هنا – وجهت فى بدايتها نداء عاما إلى الناس جميعا فهو فى الحقيقة بمثابة الإنذار الأخير أو البرقية الأخيرة إلى كل المكذبين بالبعث والقيامة ؛ لأن هـذه الآيـات آخر آيات نزلت تتحدث فى شأن البعث وإقامة الأدلة عليه وهـذا يذكرنـا بالنـاصح الأمين الذى قدم نصائحه دون جدوى وفى النهاية وجه إلى من ينصحهم قوله : " لقـد أعذر من أنذر " وفى استعمال الآية " إن " الشرطية التى تفيد الشك وإدخالها على فعـل الكينونة الذى تعلق به ما يفيد الشك – أيضا – " إن كنتم فى ريب من ابعـث " مما يدل على أن هذا الانتهاء من الحديث فى هذا الموضوع جاء فى وقته المناسب الذى قد دخل فيه الكثيرون فى الإسلام ، بل كادت شبه الجزيرة العربية وغيرها تخضع له أى أن فيه إشارة إلى أن القلة هم الذين لا زالوا يشكون أو يكذبون فى أمر البعث ، ولا عجب إذا كان النداء إلى (الناس) وهو يشمل كثيرين لأنه - كما قلت بمثابة الإنذار الأخير ونداء عام قد يشمل من سيدخلون فى الإسلام فيما بعد فى الجزيرة وغيرها .

ولهذا كانت هذه الآيات - كما قلت - الإنذار الأخير أو حسن الختام لآيات خلق الإنسان ، وقد يراد بالناس المنكرون فى مكة والمدينة . ثم دخلت الآيـات فى تقديم أدلة البعث وهى نوعان :

١ – نوع يتحدث عن خلق الإنسان الذى له صلة ببعثه حيا من جديـد ؛ إذ من قدر على البدء يكون أكثر مقدرة على إعادته والإعادة أهون وصـدق الله " وهـو

الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهـــو العزيز الحكيم " [1] .

٢ – النوع الثانى هو من الأدلة الكونية التى طالما قدمها القرآن الكريم كدليـــل على البعث لوضوح وجه الشبه بين ما يحدث فيها وما يحدث للأموات الذين يبعثون يـوم القيامة ألا وهى : الأرض الميتة التى يحييها الله بإنزال الماء عليها فتخرج مـــن كـــل زوج بهيج .

أما الأدلة الأولى وهى أطوار خلق الإنسان فقد بدأت بالتأكيد لدفع الريـــب السابق فى أمر البعث " يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تـراب ثم من نطفة ....." والأطوار – هنا – هى (التراب) وهو فى خلق آدم أبـــى البشـــر و (النطفة) و (العلقة) و (المضغة) فى خلق ذريته والأطوار الثلاثة الأولى ذكرت مـــن قبل كثيرا ، أما المضغة فقد ذكرت من قبل فى المؤمنون فحسب ، أما ذكر الثلاثـــة الأولى فى أكثر من مرة ، ثم أعيدت– هنا – فهذا يدل على أن هذه الثلاثة كافية جدا لتكـــون أدلة مقنعة للإيمان بالبعث ؛ ذلك أنها أقرب الأدلة إليهم ؛ لأنهم أكثر معرفة بها من غيرها فالتراب الذى خلق منه آدم تحت أرجلهم وقد اعترفوا – كما يذكر القرآن أكثر مـــن مرة أن الله هو الذى خلقهم [2] أى خلقهم من أبيهم آدم ، أما النطفة فهى ملموسة لهـم جدا بل هى التى تدفعهم دفعا إلى الزواج والإنجاب وهم يعرفون جيدا أن أولادهم الذيـن يعتزون بهم إنما هم من هذه النطفة ، وأما العلقة فقد عرفهم الله بها فى أول سورة نزلـــت من القرآن الكريم [3] ثم ذكر هذا الطور بعد ذلك كثيرا فصاروا به أكثر معرفة ، أمـــا (المضغة) وإن كانت قد ذكرت فى (المؤمنون) فحسب مطلقة عن التفصيل لتتناســب مع عقول الـــمجادلين فى أمر البعث من أهل مكـــة ، ثم جاءت هنا فى المدينة

---

(١) ٢٧ الروم .

(٢) راجع ص ٨٢ وما بعدها

(٣) انظر اعترافاتهم ص ١٢١

وجعلت هذه المضغة مضغتين : إحداهما (مخلقة) أى ظهر فيها أثر التخليق وتمييز الأعضاء ، والأخرى (غير المخلقة) وهى ما ليست كذلك وهى التى شاء الله أن تسقط قبل أن يظهر فيها أثر التخليق[1] ، أما التنصيص على غير المخلقة ففيه إشارة إلى مشيئة الله – تعالى – وقدرته الذى لم يشأ لها أن تكتمل فتسقط قبل أن تتخلق ، وهذا التنويع من المخلقة وغير المخلقة له علاقة وثقى بالبعث الذى ينكرونه ؛ إذ أن فاعل المضغة المخلقة – وهى لم تكن شيئا يذكر ؛ وفاعل البعث واحد وهو الله – تعالى – كأنه – سبحانه وتعالى – يقول : من شاء للمضغة المخلقة أن تكتمل وتصير إنسانا كاملا عاقلا سميعا بصيرا فهو قادر على بعث الموتى ، وتقديم المخلقة على غير المخلقة يؤيد ذلك ؛ إذ أن المقدم إنما يقدم فى النظم البلاغى لسر بلاغى أو لحكمة آلهية – كما هنا ، كما يؤيده قوله – سبحانه – بعد : " ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى " كما يؤيده المراحل التالية للمضغة المخلقة وهى الإقرار فى الأرحام لمن شاء أن يكتمل ثم إخراجه – سبحانه وتعالى – طفلا كامل الخلقة ثم بلوغه الأشد ... وقد يصل إلى أرزل العمر وكل ذلك بقدرة الله – تعالى – وهم يشاهدون تلك المراحل كلها بداية من الطفولة .

---

(١) هذا رأى الأغلبية بناء على الحديث الشريف " إذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا فقال : يا رب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قال : غير مخلقة مجتها الأرحام دما " ويرى أبو حيان الأندلسى ، والطاهر بن عاشور أن المضغة غير المخلقة طور من أطوار المضغة ؛ لأنها تكون فى أول أمرها غير مخلقة ثم تكون مخلقة بتصوير الوجه والأطراف . [ينظر ٣٥٢ البحر المحيط لأبى حيان طبعة سنه ١٤٠٣ هـ دار الفكر و ١٩٨ جـ ١٧ (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور] .

ولكن ينقض هذا الرأى الآتى :

١- الحديث الشريف الصحيح السابق .

٢- أن الله – تعالى – قال بعد ذلك : " ونقر فى الأرحام ما نشاء ... " فما لم يرد الله له أن يستقر سقط .

٣- لو كان هذا الرأى صحيحا لقدم طور (غير المخلقة) على طور (المخلقة) فى الذكر لأن الأولى تسبق الثانية فكيف يقدم المرحلة الثانية على الأولى ؟ !

٤- أن البحوث الطبية الحديثة تقول : إن سبعة وثمانين فى المائه (٨٧ %) من كل حمل تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل .

ثم تتدرج الآيات معهم فتقدم دليلا من نوع آخر لإقناعهم بإمكان الله - تعالى - البعث ، وهو الأرض الميتة الهامدة الخامدة الجدباء التى لا تنبت زرعا فينـــزل الله عليها الماء فتحيا وتخرج النبات من كل زوج بهيج .

وهنا بين الدليلين وجه شبه قريب قوى ؛ ولذا عطفت الآية هذا الدليـــل على أدلة خلق الإنسان فى قوله – تعالى – " وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها المـــاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * " والشبه بين الأرض الهامدة الجدبـــاء الـــتى أحياها الله شبه قوى جدا ؛ إذ كانت قبل أن تمتد إليها العناية الإلهية لإحيائـــــها أرضـــا مقفرة لا تنبت زرعا ، والموتى آنئذ يشبهونـــها ، ولما امتدت إليها عنايته – ســـبحانه – أنزل عليها الماء فحييت وأخرجت من كل زوج بهيج ، والموتى الذين أحياهم الله أشـــبه بها آنذاك فهو شبه أو قياس منطقى لا يرفضه عقل قصد به التأكيد على إمكان بعـــث الله الموتى ؛ إذ من قدر على إحياء الأرض الجدباء الخالية من النبات فهو قادر علـــى بعـــث الأموات . وسبحان من هذا كلامه !!!

أهم مراجع البحث

١- إعراب القرآن وبيانه لمحيى الدين الدرويش . دار ابن كثير دمشق . بيروت .

٢- الآيات الكونية فى القرآن العظيم للأستاذ عبد المنعم العشرى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

٣- أسباب النزول للنيسابورى مكتبة المتنبى .

٤- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى . طبعة سنه ١٤٠٣ هـ دار الفكر .

٥- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور . الدار التونسية ١٩٨٤ م . الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

٦- التفسير الكبير للفخر الرازى . الطبعة الثانية - دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية .

٨- جامع العلوم والحكم لابن رجب الأندلسى . تحقيق عبد الله المنشاوى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

٩- الجنى الدانى فى تذوق المعانى . د . عبد الحليم محمد شادى الطبعة الأولى . مطبعة الأمانة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .

١٠- جواهر البخارى وشرح القسطلانى أ. مصطفى محمد عمارة . الطبعة السابعة .

١١- جواهر البلاغة للسيد أحمد هاشم الطبعة العاشرة ١٩٣٩ - ١٩٤٠ م مطبعة الأعتماد .

١٢- خلق الإنسان بين الطب والقرآن . د . محمد على البار الطبعة الخامسة ١٤١٤ هـ - الدار السعودية للنشر والتوزيع .

١٣- روح المعانى للألوسى . مكتبة دار التراث - المركز الإسلامى للطباعة والنشر .

١٤- روح الاجتماع د / جوستاف لوبون ترجمة أحمد فتحى زغلول - المطبعة الرحمانية - .

١٥- سنن ابن ماجه .
١٦- صفوة التفاسير للصابونى . نشر دار الرشيد بحلب المطبعة العربية الحديثة بالعباسية القاهرة .
١٧- فتح القدير .... للشوكانى . تحقيق وتخريج أ . سيد إبراهيم - دار الحديث سنة ١٩٩٢ م .
١٨- فى ظلال القرآن . للأستاذ سيد قطب الطبعة السابعة عشرة دار الشروق ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ .
١٩- الكشاف للزمخشرى . جـ ٣ تحقيق محمد الصادق قمحاوى مكتبة ومطبعة الحلبى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
٢٠- مجلة المجاهد . عدد نوفمبر ديسمبر سنة ١٩٨٨ الأستاذ د / عبد المجيد زندانى .
٢١- مسند الإمام أحمد .
٢٢- المصباح المنير للفيومى . نشر وزارة المعارف . الطبعة الثامنة سنة ١٩٣٩ بالمطابع الأميرية .
٢٣- معركة المصحف فى العالم الإسلامى للشيخ محمد الغزالى الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ .
٢٤- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى - شروح التلخيص الطبعة الأولى .
٢٥- المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية . طبعة وزارة التربية والتعليم ١٤١٤ هـ - ١٩٩٢ م .
٢٦- المطول للتفتازانى الطبعة الأولى ١٣٣٠ هـ .